

اخترنا لك ٣٦

الصهيونية



فى المجال الدولى

بقلم
الدكتور محمد عبد المعز نصر

اخترنا لك ...
٣٦

الصهيونية في المجال الدولى

تأليف
دكتور محمد عبد المعز نصر

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر



الرئيس جمال عبد الناصر

الفصل الأول

الصهيونية فكرة وسياسة

أعلن الإنجليز أن يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ سيكون آخر أيام انتدابهم فى فلسطين ، وأعلن اليهود أن ذلك اليوم سيكون أول أيامهم فيها تحت راية دولتهم الجديدة ـ دولة إسرائيل ـ وعجب العالم بأجمعه لهذا النبأ ولهذا الحدث ، وعاش العالم بأجمعه فترة من الزمن بين تصديق وتكذيب ، وذهب الناس فى الغرب والشرق يتساءلون ، هل هذا ممكن ؟ أيستطيع اليهود أن ينشئوا لهم دولة بين الدول ؟ وهل بلغت الدول العربية من الضعف درجة تمكن لليهود أن يفرضوا سلطانهم على إقليم عربى ؟ وتباينت الإجابة فى ذلك الوقت على مثل هذه الأسئلة ، فمن الناس من قال إن العرب سيلقون باليهود فى قاع البحر ، ومنهم من قال إن اليهود سيلقون بالعرب فى جوف الصحراء ، واحتكم الطرفان إلى القوة . فقامت دولة إسرائيل ، وسجل التاريخ المعاصر هذه الحقيقة السياسية غير عابئ بما أهاج فى سبيلها من حركة انقلابية فى حياة الأفراد والشعوب القريبة والبعيدة .

كما أن التاريخ قد بدئ بهذا الحدث المفاجئ للعرب والمنتظر عند اليهود فكرة سادت عند مفكرى العالم منذ خراب أورشليم على يد الكلدانيين فى سنة ٥٨٦ ق . م وخرابها ثانية على يد الرومان فى سنة ٧٠ م وردها

أن الشعب اليهودى عاجز عن أن يترجم نشاطه فى مختلف جوانب الحياة إلى دولة ، إذ اشتهر اليهود بإنتاجهم فى النواحى الروحية والعقلية والمالية ، ولكنهم لم يشتهروا منذ أن غزاهم الرومان وهاجروا من موطنهم بأنهم أهل حرب وتنظيم وسياسة ، وهكذا علق التاريخ بواقعيته تعليقاً ساخراً مما نسج المفكرون حول عجز اليهود فى ميدان السياسة والحرب .

ويمكننا أن ندرك مغزى قيام دولة إسرائيل من هذه الوجهة ، إذا نحن عرضنا لرأيي رجلين ، أحدهما شرقى ، والآخر غربى عن قدرة اليهود فى بناء الدول — رغم ما يباعد بين الرجلين من فروق فى الزمن والعنصر والثقافة — وهما ابن خلدون العربى الذى عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ووالتر باجت الإنجليزى الذى عاش فى القرن التاسع عشر .فابن خلدون يشير فى مقدمته إلى أنه لم يبق لليهود فى زمنه سوى الذلة والمسكنة والاستعباد نتيجة لفقدانهم العصبية التى تقوم عليها الدولة وضرب بهم المثل على القوم الذين يحتفظون بذكرى شرف الآباء وحسبهم دون أن يكون لهم من العصبية القومية ما يجعل ذلك الشرف والحسب حقيقة تزدهر فى ظل الدولة ، وهو يقول فى ذلك .

« وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها فى شىء لذهاب العصبية جملة . وكثير من أهل الأمصار الناشئين فى بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك، وأكثر ما رسخ

الوسواس فى ذلك لبنى إسرائيل فإنه كان بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت أولا . لما تعدد فى سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم . ثم بالعصبية ثانياً ، وما أتاهم الله بها من الملك الذى وعدهم به . ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافاً من السنين . وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدهم يقولون . هذا هارونى ، هذا من نسل يوشع . هذا من عقب كالب . هذا من سبط يهوذا ، مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة . »

ولقد وصل والتر باجت إلى ما وصل إليه ابن خلدون من أن اليهود قد أضاعوا دولتهم وفشلوا فى إعادة بنائها لأن مزايا التقدم التى كسبوها فى تطورهم لم تتحول إلى مزايا عسكرية . فهو يذكر أن اليهود فى تاريخهم تطوروا تطوراً ملحوظاً فى الفكر الداخلى ، وخاصة من الناحية الدينية إلا أن مزايا حضارتهم استمرت مثلما بدأت دينية ، فلم تتخذ طابعاً عسكريا ولذا فنيت دولتهم ، مع أنها تركت تراثاً لا يفنى من الجمع بين القدرة على التغير والمحافظة فى الوقت ذاته .

ووالتر باجت فى هذا يرى ضرورة توفر مزايا العسكرية عند الأمم لتقوم عليها الدولة كما يرى ابن خلدون ضرورة توفر مزايا العصبية لتحقيق ذلك فكلاهما يؤكد قصور اليهود فى عالم السياسة والحرب ، ويضرب بهما المثل على الفشل بين الشعوب . وكلاهما يقرن الحرب بالسياسة ، والعصبية

بالحكم والتماسك الاجتماعي بنشوء الدولة وازدهارها والتفكك القومي بسقوط الدول وانهيارها وفنائها .

فالفكرة التي سادت إذن عن اليهود منذ أن دمر الرومان معبدهم في أورشليم سنة ٧٠ م ، وقضوا بذلك على ما تبقى لهم من رياسات دينية هي العجز الظاهر عن إقامة دولة تضم الشعب اليهودي ، ولم يكن ذلك الرأى في حاجة إلى تأييد من البراهين النظرية . لأن الواقع كان أوضح شاهد على ذلك ، فاليهود حين جلوا عن موطنهم في فلسطين لم يهاجروا إلى مكان واحد ، ويؤلفوا مجتمعاً واحداً وإن فقدوا أركان الدولة الأخرى ، بل تتميز بعالميتها ، إذ تفرقوا في جميع أنحاء العالم المتحضر في أوربا وآسيا وأفريقية . وبالطبع لم تكن هنالك أمريكا في ذلك الوقت ليهاجروا إليها ، وإلاّ لما تركوا مثل هذه الفرصة ، فاليهودي الجوّال التائه لم يعرف حدود المكان في هجرته ، وما أن عمرت أمريكا في العصر الحديث حتى دخل أبوابها ، وأمسك بكلتا يديه بعض المفاتيح الهامة لتلك الأبواب . ولكن اليهود في تفرقهم في أنحاء الأرض المعمورة . لم ينسوا أبداً أنهم يهود ، فلم يندمجوا في الأقوام الذين عاشوا بينهم . وإنما احتفظوا بعزلتهم ، وانفصال جماعاتهم عن المجتمعات الوطنية التي استقبلتهم ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الخاصية التي تتنافى والمواطنة الحقة ، ومن ثم كانوا دائماً موضع شك واضطهاد أينما ذهبوا بين الأمم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة ، وما أحسنت الظن بهم أمة من الأمم وأحسنت إليهم حقبة من الزمن إلاّ وعادت تقتص من إساءتهم إليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها

ولا تستشعر المشاعر العامة لسائر المواطنين . ولقد برر مفكرو اليهود وكتّابهم هذه الانفصالية التي جبل اليهودى عليها فى الأوطان المختلفة بتبريرات اجتماعية وسياسية واقتصادية ونفسية ودينية ، ولكننا نرجئ مناقشة تلك الآراء ونكتفى بالإشارة إلى هذه الظاهرة التى فرضها تاريخ اليهود على بنى إسرائيل ، لإنها حجر الزاوية فى محاولة اليهود إنشاء دولتهم المعاصرة ، وليس من العسير علينا فى مصر أن نلاحظ العزلة اليهودية رغم أن البلاد الإسلامية كانت من التسامح نحو اليهود حتى أنهم لم يضطروا كما فعلوا بين غير المسلمين فى أغلب مدن أوربا من أن يعيشوا فى « حى خاص مظلم قذر غير صحى » عرف باسم الغيتو نسبة إلى حى اليهود فى روما ، فنى القاهرة لهم حارة . وفى الإسكندرية لهم حارة تحمل اسمهم ، ولقد كان من الممكن أن نأخذ برأى بعض كتاب اليهود الذين يعزون هذه الظاهرة الانعزالية إلى ما وقع على اليهود من اضطهاد الرومان واليونان ودول أوروبا المسيحية الغربية والشرقية ، لولا أننا اطلعنا فى التوارة على ما حدث من مناقشة بين يوسف عليه السلام و بين أبويه و إخوته حين استقبلهم فى مصر إنقاذاً لبنى إسرائيل من المجاعة الماحقة التى حلت بهم . فيوسف عليه السلام فى نصحه لأهله حاول أن يهيىء لهم إقامة بعيدة عن الاختلاط بالمصريين وأن يحتفظ لهم باستقلالهم فى العيش عنهم رغم ما بدا من ترحيب فرعون بهم وكرمه معهم ، وهنا نورد قصة ذلك من التوراة فهى تقول :

« جميع النفوس ليعقوب التى أتت لمصر الخارجة من صلبه ما عدا نساء بنى يعقوب ، جميع النفوس ست وستون نفساً ، وابنا يوسف اللذان

ولدا له فى مصر نفسان ، جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون .

فأرسل يهوذا أمامه إلى يوسف ليرى الطريق أمامه إلى جاسان ، ثم جاءوا إلى أرض جاسان ، فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان ، ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زماناً ، فقال إسرائيل ليوسف أموت الآن بعد ما رأيت وجهك أنك حى بعد .

ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه اصعد وأخبر فرعون واقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلى . والرجال رعاة غنم ، فإنهم كانوا أهل مواش وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم . فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً . لكى تسكنوا فى أرض جاسان . لأن كل راعى غنم رجس للمصريين » .

(الإصحاح السابع والأربعون)

« فأتى يوسف وأخبر فرعون وقال أبى وإخوتى وغنمهم وبقرهم وكل مالهم جاءوا من أرض كنعان . وهو ذاهم فى أرض جاسان وأخذ من جملة إخوته خمسة رجال وأوقفهم أمام فرعون . فقال فرعون لإخوته ما صناعتكم . فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعاً . وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب فى الأرض . إذ ليس لغنم عبيدك مرعى . لأن الجوع شديد فى أرض كنعان . فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان .

فكلم فرعون يوسف قائلا ، أبوك وإخوتك جاءوا إليك . أرض مصر

قدامك . فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان . وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى .

ثم أدخل يوسف يعقوب أباه وأوقفه أمام فرعون . وبارك يعقوب فرعون . فقال فرعون ليعقوب . كم هى أيام سنى حياتك . فقال يعقوب لفرعون أيام سنى غربتى مائة وثلاثون سنة . قليلة وردية كانت أيام سنى حياتى ولم تبلغ إلى أيام سنى حياة آبائى فى أيام غربتهم. وبارك يعقوب فرعون وخرج من لدن فرعون فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر . فى أفضل الأرض فى أرض رعمسيس . كما أمر فرعون . وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد » .

فالانعزالية عند اليهود — كما تبدو من حرص يوسف وأهله على البعد عن أهل مصر — عميقة فى نفوسهم متأصلة فى ماضيهم . ولقد دفع بهم إلى ذلك ما ظهر بين القوم من تكتل اجتماعى منذ نزولهم بأرض كنعان فى فلسطين واستمر صفة بارزة من صفاتهم يعتزون بها رغم تفرقهم ، وينسبونها إلى وحدة الجنس ووحدانية الدين واتحاد الثقافة والتقاليد .

وكان من الممكن أن يكونوا مواطنين صالحين فى الدول التى عاشوا بين ربوعها لو أنهم استخدموا مزاياهم الحضارية فى خدمة الصالح العام إلا أنهم اشتهروا بغير ذلك ، بل بنقيض ذلك . فالدين اليهودى والأخلاق اليهودية علمهم كيف يؤمنون بأنهم شعب الله المختار ، وكان الله إلههم وحدهم وإن كان اتصالهم بالأجناس الأخرى جعلهم يدركون

فيما بعد الفائدة من أن الله رب العالمين لا رب اليهود وحسب . كما أن استمساكهم بعاداتهم وإن كان قد أفادهم فى الإبقاء على ذاتيتهم على ممر الأجيال ، إلا أنه كثيراً ما باعد بينهم وبين الشعوب الأخرى التى استضافتهم ، فالشعور المتعصب بامتيازهم الدينى والثقافى والعنصرى الذى يتضمنه تعليق ابن خلدون إلى جانب عزلتهم وعدم انصهارهم فى المجتمعات التى آوتهم جعلهم دائماً موضع عداء زاد بدوره فى بعدهم وتزكية الصفات غير الاجتماعية بين أفرادهم ، فهم فى المجتمع وليسوا منه ، وهم يعيشون فيه ولا ينسبون إليه .

فهذا الموقف الذى وجد اليهود أنفسهم فيه نتيجة لظروفهم التاريخية والدينية والاجتماعية ، وما أثار من عداء متجدد نحوهم فى العصور القديمة والحديثة ، هو منبع الحركات المضادة لسامية بين الدول المسيحية ، خاصة دول وسط أوربا وشرقيها ، كما أنه منبع الصهيونية بين اليهود .

فالصهيونية هى رد اليهود فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين على ما أصابهم من اضطهاد على أيدى إمبراطورية النمسا والمجر وألمانيا وفرنسا وروسيا ، ونقصد هنا بالصهيونية « الصهيونية السياسية وهى محاولة حل مشكلة انعدام الوطن الجغرافى للشعب اليهودى بخلق موطن لليهود ». فمن الغريب أن القرن التاسع عشر هو القرن الذى ازدهرت فيه الحركات التحريرية نتيجة للثورة الأمريكية والثورة الفرنسية . وقد استفاد اليهود من هذا التحرير الذى سار مع جيوش نابليون . فسقطت جدران أحياء اليهود المسماة بالغيتو أولا فى هولندا وبعدئذ فى ألمانيا وفى النمسا وفى إيطاليا ،

وكسب اليهود بهذا المساواة فى الحقوق القانونية مع سائر المواطنين وأخذوا يجاهدون فى استكمال حقوقهم السياسية والدينية . ومع ذلك فإن الحقوق التى كسبوها والحرية التى استمتعوا بها فى القرن التاسع عشر لم تكن خالصة من الشوائب . إذ لم تخل دولة من دول أوربا الوسطى والشرقية من قيام حركة ضد اليهود تقاوم النفوذ الاقتصادى والسياسى والثقافى الذى حصلوا عليه من أثر إطلاق أيديهم فى نشاط الدولة العام بعد هذا التحرير الشامل . ولكن اليهود لم يصبروا فى هذه المرة على الاضطهاد مثلما صبر آباؤهم وأجدادهم من قبل مكتفين بالانطواء على أنفسهم فى « الغيتو » أو بالهجرة إلى وطن آخر يحسون فيه بحريات أوسع وأمن أفضل ، بل إن الوطنية السياسية التى قويت فى جميع دول أوربا أثناء القرن التاسع عشر . وجعلت كل أمة تصبو إلى الوحدة القومية وإلى السيادة على أفرادها فى حدود دولة مستقلة ، أوحت إلى اليهود بالحل لمشكلتهم المستعصية ، فلقد نادى مفكروهم بوجوب العودة إلى فلسطين حيث يقيمون دولة يهودية من الشعب اليهودى يجدون فيها الأمن من الاضطهاد المتكرر ، ويتخذون منها مركزاً لاقتصادهم وثقافتهم ودينهم . وميداناً لتنمية شخصيتهم وعبقريتهم القومية . ووطناً لإعلاء رسالة اليهودى شأنه فى ذلك شأن الألمانى فى ألمانيا أو الفرنسى فى فرنسا ، أو الإنجليزى فى إنجلترا .

وهذه الدعوة التى نادى بها قادة اليهود إلى العودة إلى فلسطين تختلف عن غيرها من الدعوات السابقة والمعاصرة ، فهى دعوة سياسية وليست دعوة دينية أو ثقافية ، كما درج اليهود على ذلك منذ أن سباهم

تابوخدناصر وقادهم إلى بابل سنة ٥٨٦ ق . م فبكى شعراؤهم فلسطين بقولهم :

« على أنهار بابل جلسنا وبكينا عند ما تذكرنا صهيون ، على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأن الذين أسرونا طلبوا منا أن نرنم لهم من ترنيمات صهيون .

كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ، إن نسيتك يا أروشليم تنسى يمينى . . . . .

يابنت بابل طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جزيتنا » .

فدعاة الصهيونية فى القرن التاسع عشر والعشرين لا يعبرون عن تعلقهم بفلسطين بذرف الدموع أو الحنين ، وإنما يرسمون لذلك الخطط السياسية والعملية ويسيرون على برنامج منظم سبقوا به البرامج التى اشتهرت بها الحركات الثورية الحديثة مثل الشيوعية والفاشية والنازية . فلقد ركزوا اهتمامهم بإعادة بناء دولتهم فى فلسطين ، لما يصلهم بها من عواطف الدين والتاريخ ، ولما لهذه الصلة الروحية والنفسية من قوة فى تركيز جهود اليهود نحو تحقيق هذا الهدف المثالى ، وهذا الحلم الأخاذ ، وما أفعل فى النفس من استخدام المواثيق التى امتلأت بها التوارة ، والتى عقدها الرب « يهوه » مع بنى إسرائيل فى أن يعطيهم ويورثهم إلى الأبد أرض كنعان بل « الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » لكى يخدموا بهذا الحق الإلهى فى أرض فلسطين مطمعاً استعمارياً صاغه دعاة الصهيونية لينقذوا دماء إخوانهم فى العصبية والدين ، بإهراق دماء العرب من غير اليهود .

فدعاة الصهيونية كانوا يقدرون العامل النفسى الجماعى حين اختاروا فلسطين موطناً للدولة الجديدة ، فهى الضالة المنشودة . وهى أرض الميعاد التى تجعل من الصهيونية معتقداً عند الجماهير اليهودية التى لا تزال غارقة فى ثقافة التوراة . والتى تعانى فى الوقت نفسه اضطهاد الدول الأوربية المسيحية لما ملك أذهان المسيحيين من أن اليهود قتلة السيد المسيح وأنهم الأقلية الغريبة التى تبتز أموالهم بل ولا تتورع عن سفك دمائهم فى سبيل ابتزاز ذلك المال كما صور ذلك شكسبير فى روايته « تاجر البندقية » بأن جعل من شخصية « شيلوك » مثال اليهودى الذى يصر على أن يسترد دينه على المسيحى إن لم يكن ذهباً فلحماً ودماً ، فالصهيونية بالنسبة لليهود — ولاسيما الفقراء منهم والمضطهدون — دعوة نفاذة إلى أعماق القلب والخيال . ولقد اتخذ دعاة الصهيونية من هذه العواطف التى تثيرها فى نفس اليهودى العادى قوة دافعة ينفذون بها فى تعصب أغراضهم السياسية التى دبروها فى برود وقسوة لا تعرف فى الدين أية روحانية أو رحمة .

فما هذه الأغراض التى انطوت عليها الصهيونية ومن الزعيم الذى وجدت فيه هذه الأغراض المفكر الأول . والمنفذ الأول ؟ فى الواقع أنه ليس من المستطاع الفصل بين الشخص والموضوع فى هذه الحالة . إذ أن الصهيونية السياسية وليدة تجربة يهودى ولد وتعلم فى عواصم الإمبراطورية النمساوية — المجرية ، هذا اليهودى هو « هرتسل » فلقد ولد فى بودابست فى ٢ مايو سنة ١٨٦٠ ودرس القانون والأدب

فى جامعة فينا ، ولابد من أن تجربته فى فينا أثناء دراسته وأثناء عمله فيها كاتباً مسرحياً وصحفياً قد واجهته بالمشكلة اليهودية . ففى فينا ازداد الشعور العام بين الوطنيين والمحافظين من رجال الكنيسة سخطاً على اليهود وظهر حزب فى العقد الأخير من القرن الماضى يجمع بين المتطرفين من الوطنيين ورجال الكنيسة ويحمل اسم « الحزب المعادى للسامية » وذلك تحت زعامة البرنس ليختنشتين والدكتور لوجر . ومن غايات هذا الحزب الأساسية تقويض نفوذ اليهود الذى طغى فى فينا ومحاولة تقوية نفوذ العناصر الألمانية فى الإمبراطورية النمساوية المجرية حتى تجتنب الدمار المحتوم ، ومما يجب ذكره فى هذا المقام أن هتلر أثناء إقامته فى فينا قد اتخذ من الدكتور لوجر أستاذاً له فى القدرة على تحريك عواطف الطبقات المختلفة من أفراد الشعب وكسب تأييدهم كما اتخذ منه أستاذاً فى غرس العداوة والكره لليهود . ومن ثم نرى أن تيودور هرتسل الصحفى والكاتب المسرحى اليهودى لمس بنفسه القوى الجرمانية التى تعمل على تدمير اليهود والقضاء على تأثيرهم الهدام ، فى حضارة الشعوب الجرمانية ، ولم يقتصر الأمر فى ذلك على فينا بل إن مناهضة اليهود كانت قد تسربت أيضاً إلى سياسة بسمارك فى ألمانيا بعد توحيدها ، وهبت دعاية قوية ضد حزب الأحرار الوطنى ، فى برلين واتهامه بخضوعه للنفوذ اليهودي الذى يجب على كل ألمانى أن يجنب نفسه إياه ، ولقد كان من المتوقع عند اليهود أن يثور الألمان فى وجوههم وأن يحاولوا القضاء على آثارهم الانحلالية فى التقاليد الألمانية المحافظة . ولكن حدث فى فرنسا

حدث لم يكن فى الحسبان ، فلقد تسربت أسرار حربية من هيئة قيادة الجيش الفرنسى إلى أعدائهم الألمان الذين لم ينس الفرنسيون لهم هزيمتهم إياهم سنة ١٨٧٠ ، واتهم ضابط يهودى هو دريفوس بنقل هذه الأسرار العسكرية إلى القيادة الألمانية ، لأنه كان عضواً فى هيئة أركان الحرب الفرنسية ، ولقد شاهد الصحفى هرتسل فى باريس الحفل الذى جرد فيه دريفوس من رتبته العسكرية فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ وما صاحب ذلك من مظاهر الازدراء والاحتقار له كيهودى متهم بالخيانة العظمى وما صاحب ذلك أيضاً من دعاية معادية لليهود فى جميع أنحاء فرنسا ، ولكن تيقن بعض الفرنسيين من براءة دريفوس ودفاع بعض الأحرار مثل أميل زولا وجورج كليمنصو عنه انتهى بثبوت براءته بعد ذلك بعامين ، غير أن براءة دريفوس لم تكن لتعنى هرتسل قدر ما شعر بخيبة أمل فى فرنسا التى سبقت غيرها من الدول بتحرير اليهود فى عهد نابليون ، وفى تلك اللحظة قرر ألا منجى لليهود مما يتعرضون له من السخط المتزايد فى ألمانيا والنمسا وفرنسا وروسيا إلا إذا بنوا دولة يهودية يعيشون فيها كمواطنين يهود .

ولكن هرتسل شعر من بادئ الأمر أن بناء الدولة لابد له من مقومات . ومقومات الدولة اليهودية فى أواخر القرن الماضى لم تكن موجودة كما كان الحال خلال القرون الماضية التى جعلت مفكرين سياسيين واجتماعيين مثل ابن خلدون ووالتر باجت — كما ذكرنا — يشيرون إلى افتقاد اليهود عناصر السياسة والتنظيم والعصبية والعسكرية

التى لابد من توفرها لنشوء الدول واستمرارها ، فكان الدور الذى قدمه هرتسل لأبناء جنسه هو أن يكون لهم المهندس السياسى الذى يعطى فكرة الدولة اليهودية فى فلسطين شكلها ونظامها ووجهتها ، وفعلا قام بهذا الدور ، إذ لم يحاول أن يجعل من الصهيونية حركة مقصورة على أغنياء اليهود وعلى أعضاء الطبقة الوسطى منهم بل عمل على أن تكون حركة شعبية تؤيدها الجماهير اليهودية فى مختلف أقطار العالم ، ولقد وجد فى الحركات الأوربية لاضطهاد اليهود خير معاون على توحيدهم وجمعهم على هدف النجاة والخلاص من عذاب متجدد مع الأيام ، ولتحقيق هذه الوحدة بين اليهود رأى ألا بد من خلق أداة مركزية تضع برامج الحركة وتوجه أهدافها وتنفذ سياستها ، فدعا بنى قومه إلى عقد مؤتمر صهيونى عالمى ، فأرسل اليهود إليه ممثلين لهم من جميع أنحاء العالم وقد استقر الرأى على عقده فى بال بسويسرا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ ، وكان هذا أول اجتماع برلمانى لليهود منذ دمار أورشليم فى سنة ٧٠م وفى الواقع أن هذا المؤتمر كان الهيئة التأسيسية لا الحركة الصهيونية فحسب بل للجامعة اليهودية التى شاءت الأقدار أن تقف وجهاً لوجه مع الجامعة العربية وتختبر كل منهما فى لقائهما مدى توفر مبدأ ابن خلدون عن العصبية فى منافستها . ولقد رأى أعضاء المؤتمر اتباع إجراءات أربع لتحقيق هدف الصهيونية ، وما سياسة دعاة الصهيونية منذ ذلك الوقت إلا سير على هذا البرنامج وتنفيذ مواده :

١ ــ فالإجراء الأول يقرر العمل بكل الوسائل الفعالة على استيطان

فلسطين بواسطة عمال زراعيين وصناعيين من اليهود .

٢ — والثانى يقرر تنظيم الشعب اليهودى بأجمعه بواسطة منظمات محلية ودولية تلائم الغرض وتتفق وقوانين البلاد التى يعيش فيها اليهود .

٣ — والثالث يقرر تقوية العاطفة والوعى اليهودى القومى .

٤ — والرابع يقرر اتخاذ الخطوات المناسبة نحو الحصول على موافقة الدول العظمى ، إلى الحد الذى تكون فيه موافقتها ضرورية لتحقيق الهدف الصهيونى .

وإن المتأمل لهذا البرنامج الذى وضعه المؤتمر الصهيونى الأول يلاحظ أنه يعبر عن وجهتى النظر اللتين كانتا سائدتين عند اليهود فى ذلك الوقت ، فبعض قادة الصهيونية كانوا يرون أن استعمار فلسطين إنما يأتى من الداخل بأن يستولى اليهود عن طريق الشراء على أكبر قدر مستطاع من أرض فلسطين ويقوموا هم بزراعتها وإنشاء المؤسسات الصناعية فيها حتى يدحض اليهود التهمة العالقة بهم منذ القديم بأنهم وسطاء مال ومرابون وأنهم غير منتجين وإنما يعيشون على استلاب نتاج عرق غيرهم من الشعوب التى تنتج الثروة الحقيقية من منابعها الأصلية ، وليستطيعوا فوق ذلك أن يضمنوا لدولتهم دعائم تنمو عليها بالتدريج كأى كائن حى آخر على حسب تعبير ويزمان .

كما أن هذا البرنامج يشتمل على وجهة النظر الثانية فى استعمار فلسطين وهى التى ارتبطت باسم هرتسل ، إذ كان يرى أن إنشاء الدولة الصهيونية إنما يأتى عن طريق الدبلوماسية بأن يحصل اليهود من الخليفة

العثمانى على عهد يخولهم احتلال فلسطين وحكمها حكماً يهوديا مستقلا تحت سيادة الباب العالى . وفى كلتا الحالتين يجب تعبئة الشعور اليهودى فى العالم بأجمعه وتنظيم اليهود تنظيما عالمياً يكفل استخدام جميع مواردهم الثقافية والاقتصادية والسياسية فى سبيل تنفيذ هدفهم المنشود .

ونحن إذ ننظر الآن إلى الوراء ، نرى أن اليهود استطاعوا أن ينفذوا الاتجاهات الثلاثة التى ظهرت فى حركتهم منذ البدء بمثابرة وإلحاح كما اشتهر عن اليهود فى أدائهم لأعمالهم ، فلقد نظموا هجرة المال والأفراد إلى فلسطين عن طريق المشروعات العامة والخاصة واتخذوا من المستعمرات التى أنشأوها وسيلة للدعاية لما أحرزوا من تقدم — وما يمكن أن يضفوه من تقدم على أهل فلسطين العرب إن هم أتيح لهم الحياة بها وإنشاء دولة فى ربوعها ، وهم فى الواقع كانوا أذكياء فى هذا النوع من الدعاية الذى وجهوه إلى الغرب المتحضر بالحضارة الصناعية التى نعيش تحت سلطانها ، فبالرغم من أن الإنسانية قد تقدمت فى إحساسها العام بالاعتبارات الروحية ، إلا أن الناس فيها قد أصبحوا عبيداً للمادة فى تقويمهم للأشياء ، فالأغلب الأعم فى الوقت الحاضر أن يحكم الأفراد على غيرهم من الأفراد وتحكم الشعوب على غيرها من الشعوب بقدر ثروتها المادية ومظاهر تلك الثروة الخارجية ، وهكذا ثابر اليهود على مخاطبة الغرب بلغة التخاطب المفهومة عندهم — وهى لغة الازدهار الاقتصادى ليقنعوا الغرب بأنه من صالح العالم الغربى أن تكون فلسطين لليهود لا للعرب المتخلفين فى شئون الاقتصاد ، وفى حمأة المادة صفق

الغرب لليهود وهم يرقصون على أشلاء بنى الإنسان الغرباء عن الغرب من عرب فلسطين .

وإذ دأب اليهود على إنشاء المستعمرات الزراعية والصناعية فى فلسطين منذ آخر القرن الماضى . لاحت لهم فرصة استعمار فلسطين استعماراً كليا من الخارج عن طريق الدبلوماسية التى أكد أهميتها هرتسل منذ قاد الحركة الصهيونية . هذه الفرصة قدمتها لهم الحرب العظمى الأولى ، لأن جهود هرتسل فى إقناع تركيا العثمانية بأن تتنازل عن فلسطين لليهود باءت بالفشل لرفض السلطان عبد الحميد وإمعانه فى الحذر من نيات اليهود . ومات هرتسل سنة ١٩٠٤ ولكن لم تمت معه نظريته فى الاستعانة بالدول العظمى على إنشاء دولة صهيونية . فما إن دخلت تركيا الحرب مع الألمان ضد حلفاء الغرب حتى اتجه اليهود نحو الدول المتحاربة ليروا إلى أى حد تستطيع مساعدتهم فى تحقيق أمنيتهم . فأوصدت ألمانيا الباب فى وجههم ، أما انجلترا فقد فتحته أمامهم وأخذت تساومهم مساومة التاجر الإنجليزى للتاجر اليهودى . وقد اتفق التاجران على الصفقة على أسس من المصلحة المتبادلة فى أزمة من أزمات الحرب . دون أن يدخل الطرفان فى حسابهما اعتبارات إنسانية أو أخلاقية . فأصدر اللورد بالفور وزير الخارجية الإنجليزية فى نوفمبر سنة ١٩١٧ تصريحه المشهور بوعد اليهود أن ينشئوا وطنا قومياً لهم فى فلسطين دون أن يسىء ذلك إلى الحقوق المدنية والدينية لسكان فلسطين من غير اليهود ودون أن يمس ذلك حقوق اليهود فى البلاد الأخرى التى يعيشون فيها . ومن

الغريب أن الانجليز كانوا قد تعاقدوا قبل ذلك مع فرنسا وروسيا على أن تعامل فلسطين معاملة خاصة بأن يكون حكمها دولياً ، كما أفهموا الشريف حسين من ناحية ثالثة أن فلسطين ستضم إلى ملكه العربى الذى وعدوه به لقاء خروجه على الترك وتأييده لحلفاء الغرب ، وهكذا استطاع الإنجليز أن يصدروا ثلاثة تعهدات لثلاث جهات مختلفة حول فلسطين ولكنهم لم يبروا إلا فى عهدهم مع الصهيونيين .

لم بروا بعهدهم مع الصهيونيين ؟ إن الإنجليز قد أعطوا فى تبريره أسباباً مختلفة إلا أن السبب الرئيسى الذى يتفق ومنطق الإنجليز فى حياتهم العامة والخاصة هو المصلحة الخالصة التى كشف عنها لويد جورج وتشرشل فى تصريحاتهم فيما بعد ، فاللورد بالفور نفسه قد دافع عن هذا التصريح فى مجلس اللوردات حين هاجم اللورد « ايزلنجتون » مثل هذا التعهد من جانب بريطانيا واقترح ألا تقبل بريطانيا الانتداب على فلسطين لتحيزها مع اليهود فقال فى دفاعه أنه يعد هذا التعهد مظهراً من مظاهر العدل الذى تأخر تحقيقه لليهود ، إذ أنهم ساهموا بجهدهم العقلى والعلمى والروحى فى الحضارة الإنسانية ، ومع ذلك فلا يجدون لهم وطناً خاصاً بهم كسائر الأوطان . وأغرب من هذه الحجة ما قاله اللورد بالفور بأن على الدول المسيحية أن ترد الجميل لليهود على ما قدموا من خدمة للأديان العظيمة فى العالم .

ويبدو أن فكرة دين المسيحية لليهودية كانت متسلطة على تفكيره تسلطاً جعله يردد ما يدين به هو لثقافته الإنجيلية ، مما حفزه إلى أن يرد

ذلك الدين خاصة وأنه سيكون لا على حساب قومه بل على حساب العرب الأجانب ومن العجيب ألا يقتصر هذا العامل الديني على تفكير اللورد بالفور وحده بل تقرأ فى كتاب « الفرد ليلينتال » اليهودى الأمريكى الذى أصدره حديثاً عن « ثمن إسرائيل » وهو يحلل عوامل هيئة الأمم المتحدة للصهيونية فى سنة ١٩٤٧ القول الآتى :

« ولكن حيال الدعاية الواسعة التى قام بها زعماء الصهيونية فى طول « أمريكا وعرضها ، والتى كانت تؤكد أن « كل اليهود راغبون فى إنشاء « دولة لهم » وجدت عدة دول مسيحية أوربية نفسها مضطرة لمساعدة « خلق إسرائيل لتكفر عن الأخطاء التى اقترفتها بعض الدول الأوربية « المسيحية بحق اليهودية . . . »

ولكن العامل الدينى فى الواقع لم يكن إلا واحداً من بين عوامل عدة لأن الدوافع التى دفعت رجلا مثل اللورد بالفور إلى الإعلان بأنه هو نفسه « صهيونى مقتنع » لم تكن هى المسيطرة وحدها على تفكير زملائه من أعضاء الوزارة الإنجليزية ، فلويد جورج قال فى نهاية شهادته أمام اللجنة الملكية عن فلسطين فى سنة ١٩٣٦ ما يأتى :

« إن زعماء الصهيونية عاهدونا عهداً قاطعاً بأنه إذا ما التزمنا بتيسير « إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين فإنهم سيبذلون قصارى جهدهم « فى جمع نصرة اليهود وعواطفهم فى العالم كله على تأييد قضية الحلفاء « ولقد صانوا عهدهم » .

ومن المفهوم حتى الآن أن أعظم كسب ناله الإنجليز من هذه

الصفقة هو تأييد اليهود فى أمريكا لقضية الحلفاء تحت زعامة شخصيات صهيونية مشهورة مثل « برانديز » قاضى المحكمة العليا ، والبرفسور « فيلكس فرانكفورتر » ، ففى فبراير سنة ١٩١٧ بدأ الإنجليز مفاوضاتهم مع اليهود ولم تدخل أمريكا الحرب إلا فى إبريل من ذلك العام ، ويؤكد تشرشل هذا الثمن الذى تعاقد عليه الإنجليز واليهود — فالإنجليز يعدون بإنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، واليهود يعدون بدفع أمريكا إلى الحرب وتأييد قضية الحلفاء فى روسيا وفى كل مكان لهم فيه نفوذ مادى ومعنوى .

وكلما تأمل المفكر منا تصريح بالفور ودرس الطريقة التى أدت إلى صدوره والملابسات السياسية التى أحاطت به تبين له أن التصريح الذى دفع بالوطن اليهودى إلى حيز الوجود لم يكن تصريحاً ثنائيا بين انجلترا واليهود كما يبدو من الناحية الرسمية وإنما هو فى الواقع تصريح ثلاثى الأركان إذ لم يصدر إلا بعد أن تأكد الإنجليز من تأييد أمريكا لهم فى هذه المغامرة السياسية . فيد اليهود التى لعبت فى صياغة تصريح بالفور فى الوزارة الإنجليزية هى التى لعبت فى كسب التأييد له من الرئيس ولسن فى البيت الأبيض بأمريكا ، ومن الطريف أن وودرو ولسن الذى نادى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها حرم عرب فلسطين من هذا الحق ودعا إلى وجوب معاملة اليهود فى منطقة فلسطين معاملة استثنائية ، وهذا أوضح شاهد على أن الفكر — حتى فكر الرجل المثالى كالرئيس وودرو ولسن — لا يصدر عن مبدأ مطلق بل عن المصلحة

والهوى ، فبالرغم من أن « الكولونيل هوس » ممثل الرئيس ولسن الشخصى فى أوروبا قد حذره من الموافقة على وعد « بالفور » حين استشارت الحكومة البريطانية الحكومة الأمريكية فى ذلك الوعد ، أرسل الرئيس ولسن إلى ممثله بموافقته الصريحة على ذلك ، هذا إلى أن الوفد الأمريكى فى مؤتمر الصلح قد حمل مذكرة بإنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ، كما قرر الرئيس ولسن ثانية فى ٣ مارس سنة ١٩١٩ « ان الأمم المتحالفة بالموافقة التامة لحكومتنا وشعبنا قد اتفقت على أن توضع فى فلسطين أسس دولة يهودية » .

فتأييد أمريكا للصهيونية فى فلسطين ليس إذن أمراً جديداً فلقد صاحب نفوذ انجلترا فى خلق إسرائيل منذ البدء . وإن كان تأييد أمريكا لإسرائيل قد برز الآن بروزاً ملحوظاً ، فذلك لأن أسبقيتها على انجلترا فى السياسة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية جعلها هى الأولى فى معاونة اليهود بعد أن كانت الثانية فى تقديم هذه المعاونة . والصهيونيون وهم خبراء العالم فى الأسواق الاقتصادية أصبحوا أصحاب دراية مماثلة فى الأسواق السياسية ، فما فعلوا شيئاً أكثر من تحويلهم سوق الصهيونية السياسى من انجلترا إلى زميلتها الكبرى اليوم ، وما فعل « ترومان » بدوره شيئاً أكثر من مواصلة سياسة الرئيس ولسن أثناء الحرب العظمى الأولى وبعدها . بل ما كان فى استطاعة ولسن أو ترومان أن يعادى اليهود لأن رئيس الولايات المتحدة وهو فى الوقت نفسه رئيس لحزب سياسى لا يسعه أن يتجاهل وزن « الصوت اليهودى » فى تقرير مصير الانتخابات

الرئاسية كما لا يسعه أن يتجاهل قيمة المساهمة المادية التي يساهم بها اليهود في ملء خزائن الحزب بالذهب والفضة ، وهذا ما قد حدث في حالة تأييد ترومان للسياسة الصهيونية دون اكتراث برأى رجال الوزارة من أعوانه الذين نظروا إلى مسألة فلسطين من الناحية القومية والدولية فنصحوا له بالاتئاد في دعم الصهيونية ومجافاة الدول العربية ، ولقد أدى أخذ ترومان « بنصح » رجال الحزب الديموقراطي المشرفين على مالية الحزب وعلى لجنته القومية ، وتقديره مصلحة الحزب الداخلية وحدها ، في معالجته لمسألة فلسطين إلى قول « بيرنز » ان السياسة الأمريكية لا تقرر بواسطة المصلحة الدولية أو حتى بالمصلحة القومية بل تقرر « بالمساهمات التي تقدمها هيئة من ذوات المصالح إلى خزانة الحزب » .

وهكذا تبدو عبقرية اليهود في الشئون السياسية كما بدت في الشئون الاقتصادية، وبخاصة أن عبقريتهم واحدة في الناحيتين ، بل سرها واحد وعملها واحد ، ألا وهو إستغلال الضائقة التي يقع فيها الأفراد وتقع فيها الدول ، انهم يحسنون استغلال أزمات الأفراد والشعوب ، فهم لا يهمهم أن يكسبوا عن رضى ، وإنما تعودوا الربح عن قسر ، فالمأزوم في المال يستغلون أزمته بالربا الفاحش ، والمأزوم في معركة حربية أو انتخابية يساعدونه على أن يدفع لهم الربا السياسي الذى أصبحوا يشتهونه في عهد وطنيتهم الحديثة . وما فلسطين العربية إلا الربا السياسي الذى دفعته انجلترا وأمريكا إلى اليهود على ما قدموا من دين لانجلترا في معركتها الحربية مع ألمانيا أثناء الحرب العظمى الأولى ، وما قدموا

من دين إلى الحزب الديموقراطي الأمريكي في معاركه السياسية الداخلية . وليس المجال هنا مجال تقص للتفاصيل ، إنما البحث لمشكلة الصهيونية يدل على مأساة الخلق الدولي لا مأساة فلسطين وحدها فلقد ساوم اليهود بأسلوبهم التقليدي أغلب دول العالم على تأييدها للصفقة التي عقدتها مع انجلترا والولايات المتحدة ، وذلك في ساحة عصبة الأمم بين الحربين وهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية . ولقد نجحت المساومة ، ومن أظهر الأمثلة على هذه المساومة « ان شركة فيرستون للمطاط استغلت نفوذها في ليبريا للضغط على حكومتها لقبول « قرار تقسيم فلسطين أثناء عرضه على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، ولم يترك اليهود في مساومتهم للدول الكبيرة والصغيرة فرصة للضغط أو الإغراء إلا واتبعوها ، خاصة وانهم استغلوا نفوذهم في أمريكا فصوروا أنفسهم لدول العالم وكأنهم حملة مفاتيح البرلمان الأمريكي وخزائن الدولار الأمريكي» فهم في الواقع قد حاربوا معركة الصهيونية في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية وظهورهم مستندة إلى أمريكا وجذورهم مغروسة في أرضها وأسلحتهم مشتراة بدولارها وسياستهم مؤيدة ببركتها .

ومن تاريخ الصهيونية ، يتبين أيضاً أن اليهود إلى جانب محافظتهم على عبقريتهم في التعامل حافظوا أيضاً على أسلوبهم القديم في علاقاتهم الدولية ، فهم في تاريخهم السابق للميلاد لم يستطيعوا أن يقفوا وحدهم على أقدامهم ، وإنما كان محكوماً عليهم أن يعتمدوا على الإمبراطوريات الكبيرة المجاورة مثل امبراطورية مصر أو الفرس ، ولم يتطوروا هم إلى

إمبراطورية ، بل اتقنوا فن الزلفى إلى الدول العظمى ، وفن التسلق على أكتاف الغير ، وهذا فى الواقع فن يجب ألا نتجاهل قدره عند اليهود ، فمن الطريف أن نقرأ فى مقدمة ابن خلدون فصلا عنوانه « فى أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة » ، ويلاحظ ابن خلدون فى هذا الفصل أن من الناس من يتقرب إلى صاحب الجاه والسلطان بعمل أو مال عوضاً عما يحصل عليه « بسبب الجاه من الأعراض فى صالح أو طالح » ، ولقد كان هذا المسلك التقليدى لليهود ولا يزال كذلك ، إذ هو مسلك الضعيف نحو القوى ، كما أنه الخلق الذى يولده الضعف ويجعل منه الطريق المأمون لبلوغ الغايات ، إلا أنه ينطوى على مغزى أعمق ، وهو أن صاحب المال يستطيع استغلال صاحب السلطان ، وأن الاقتصاد أساس السياسة كما بشر بذلك فى العصر الحديث « كارل ماركس » . فقوة الصهيونية جاءت من مزايا اليهود المتوارثة حين استغلت استغلالا سياسياً تحت ظل الحضارة الغربية الراهنة التى أطلقت نشاطهم من كل القيود فى جميع ميادين الحياة المادية والمعنوية ، فما أن كان منهم إلا وانتهزوا الفرصة المواتية ، وأصبحوا من القوى ذات النفوذ الحقيقى الموجه لهذه الحضارة التى خلقتهم ومهدت السبيل إلى ازدهارهم ، ومن يقرأ كتاب « كفاحى » لهتلر يعرف أن اليهود استطاعوا عن طريق سيطرتهم على الاقتصاد القومى فى النمسا أن يسيطروا على السياسة بمفهومها الواسع بل وعلى جوانب الحضارة الثقافية وأدواتها من

تعليم وتأليف ومسرح وسينما وصحافة وغير ذلك . ولا شك فى أنه لو كتب أمريكى وطنى أو انجليزى وطنى مثل كتاب هتلر لما قصر عنه فى هذا الميدان ، ولكن الانجليز والأمريكيين يفضلون الهمس على الإعلان الصريح ، ومن يدرى— ربما ينقلب الهمس ثورة فى انجلترا وأمريكا ، إذا ما عاملهم اليهود المعاملة المأثورة عنهم فى جزاء المحسن إليهم بالإساءة كما جازوا الاستقبال الجميل الذى قدمه فرعون إلى آل إسرائيل حين قدم إلى يوسف أهله بنكران الجميل بل والانتقام من كرم المصريين ، ومن يقرأ فى التوراة سفر التكوين ، ير كيف آوى المصريون اليهود . ومن يقرأ السفر الذى يليه وهو سفر الخروج ير كيف عامل اليهود المصريين على ما قدموا إليهم من إبقاء على حياتهم وسط المجاعة التى كادت تفنيهم ، وكأن شعور اليهود يتلخص فى القول « من وهبك الحياة هبه الموت » . وهذا ما يقلق الآن بعض المفكرين من اليهود فى أمريكا الذين يرون أن مصير اليهود الأمريكيين أصبح معلقاً بمدى وفاء إسرائيل بجميل أمريكا ، فإن هى أغراها حب التسلق على الأكتاف الموروث فى طبائع أهلها ، ووجدت أن أكتاف الروسى أرحب وأقوى من أكتاف الأمريكى ، حلت الطامة الكبرى بيهود أمريكا الذين فضلوا فى حماسة القومية الهوجاء أن يكونوا صهيونيين أولا وأمريكيين ثانياً ، فأضحوا بذلك مواطنين إسرائيليين لا مواطنين أمريكيين لهم فى أوقات المحن ما للمواطن الإسرائيلى وعليهم ما عليه .

ولكننا نتعدى حدود البحث العلمى إن نحن عزونا نجاح الصهيونية

فى إقامة دولة لليهود بفلسطين إلى عامل استغلال اليهود لما قد كان يسميه ابن خلدون « جاه » الإمبراطورية البريطانية ، و « جاه » أمريكا وحسب ، بل ان اليهود فى الواقع استطاعوا تحت ضغط الاضطهاد الأوروبى الحديث أن يخلقوا بينهم وطنية عميقة عنيدة تشمل جميع طوائفهم فى دول العالم المختلفة ، وأن يرعوا هذه الوطنية المتأججة بمنظماتهم الاقليمية والدولية ، وبهذا أضافوا إلى العقل اليهودى والدين اليهودى اللذين مكناهما خلال العصور من الاحتفاظ بإرادة الحياة وسط الاضطهاد المتجدد شيئاً جديداً ، وهو العاطفة القومية السياسية التى جمعت بينهم جمعاً متماسكاً متعصباً ، ولقد أعطتهم هذه العاطفة الجديدة قوة ألبت جماهيرهم وأضافت إلى إيمانهم الدينى المتعصب إيماناً سياسيا متعصباً ، كما استغلوا هذه العاطفة فى خدمة العقل الذى اشتهر به قادتهم ، ومن ثم توفر لهم لأول مرة ذكاء القيادة وحماسة الجماهير ، وتوفر لهم القدرة على وضع الخطط وتنفيذها فى الوقت نفسه ، فأحسنوا الإفادة من الانتداب البريطانى لفلسطين بأن وطدوا أركان مشروعاتهم الاقتصادية وهيئوا الظروف لهجرة اليهود الشرعية وغير الشرعية كما عنوا أكبر العناية بتأليف قوتهم العسكرية متخذين من فرص السلم والحرب وسيلة لإعداد الجند وتسليحهم ، « فألفوا » — كما يقول الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد — جيشهم الرئيسى المسمى « هجانا » وجيش الصاعقة المسمى « ارجون » وبلغت قوتهم مجتمعة قرابة مائة ألف جندى وجاءتهم الامدادات من مختلف الجهات فى أوربا وأمريكا ، وذلك عندما أتموا

بوسائلهم الإرهابية « والأمريكية » إجلاء بريطانيا – دولة الانتداب – وبدأوا المعركة لإجلاء العرب عن فلسطين .

وبهذه المقومات السياسية والاقتصادية والعسكرية والوطنية التى ساعدهم عليها قدرتهم على الإفادة من التسامح الذى جاء مع الحضارة الغربية – خاصة الانجلو سكسونية ، استكمل اليهود الصهيونيون جوانب النقص فى بناء الدولة الذى لاحظه عليهم مفكرون سياسيون مثل ابن خلدون ووالتر باجت – كما ذكرنا فى مستهل هذه المحاضرة .

ولكن ما كان لليهود أن ينشئوا دولتهم فى أرض فلسطين ما لم تهيء لهم ظروف العالم العربى فى تاريخه المعاصر أسباب التوفيق . ولا أريد هنا أن أدخل فى تفصيل المسألة العربية ، وإنما لا يمكن فهم الصهيونية إلا إذا تذكرنا الصورة العربية ، فالصهيونية فكرة وسياسة ، وما كان للسياسة الصهيونية أن تنفذ إلا بما أحاط العرب بعد سقوط الدولة التركية من ذئاب الاستعمار التى تقسمت بلادهم بالاحتلال الفعلى أو النفوذ الواقعى ، وبما صاحب هذا لاستعمار من ضعف فى عصبية العرب وغصبتهم ، وشواهد هذا الضعف قائمة فى الأذهان ، فآثارها دخلت فى حياة كل فرد منا ، ولا داعى لترديدها . فالمهم أن الصهيونية دقت دولة إسرائيل كإسفين بين الدول العربية ، تهددها من ناحيتين ، الناحية الوطنية والناحية الدولية ، وأقصد بالناحية الوطنية ما علمنا إياه التاريخ فى العصور الحديثة وهو أن القومية المتطرفة لا تقف أبدا عند حدود دولتها وإنما تسعى دائماً إلى التوسع على حساب جاراتها . أما الخطر

الدولى الذى خلقه وجود إسرائيل بين البلاد العربية فيقوم على استغلال الدول الاستعمارية لها كمحطة لنفوذها ضد العرب كلما وقفوا أمام مطامعها الاستعمارية المتزايدة فى بترول الشرق الأوسط ومراكزه الاستراتيجية ولا ريب فى أن إسرائيل لن تتخلى عن تقاليد أجدادها من التعلق على الدوام بذيل دولة عظمى من الشرق أو الغرب .

ولكنا فى اختتام هذه الدراسة ، لا نريد أن نكون متشائمين ، فكل شر متلبس بخير ، وكل سالب متلبس بموجب ، على رأى هيجل ، إذ أن قدوم إسرائيل أيقظ الدول العربية يقظة عنيفة ، ولعلنا فى مصر أكثر الدول العربية شعوراً بهذه اليقظة . فالملكية المصرية سقطت فى ميدان فلسطين ، وكسبنا النظام الجمهورى ، الذى اتجهنا فيه إلى إصلاح بيتنا ، وإعادة النظر فى بنائه من جديد . فخطر إسرائيل لن يبلغ آثاره القاتلة فى الشرق العربى إذا حرص أبناء العرب على خلق أوطانهم وتنظيمها تنظيما يتفق ومطالب الحضارة التى تعيش فيها ، وذلك باستثمار الموارد الإنسانية والمادية استثماراً على أساس إيجابى لا سلبى ، فليست العبرة أمامنا تقتصر على خلق الجيوش التى تنتقم للشرق العربى من إسرائيل ، بل المهمة الخالدة هى أن تخلق مجتمعاً يكون أفراده جميعاً جنوداً صالحين لخدمة الوطن فى السلم والحرب ، ومن ثم نستطيع أن نقلم أظفار إسرائيل ، ونعلمها أن حضارة أحفاد فرعون ، حضارة أصيلة متجددة ، وأن اليوم سيأتى حين يقف إسرائيل سائلا وفرعون مانحاً .

الفصل الثانى

جذور الصهيونية فى العالم القديم والحديث

كتب الكثير فى خطر الصهيونية ، ولكن هنالك مجالا واسعاً ومتجدداً للكتابة فى ذلك الخطر كلما كشفت الصهيونية عن خدعة مختبئة أو غدر منتظر . ونحن نريد هنا أن نعالج هذا الموضوع معالجة شاملة وأن نتعمق جذوره الدينية والسياسية بين الشعوب فى التاريخ البعيد والقريب . لأنه لم يتح لحركة من الحركات استمرار فى التطور ووحدة فى التفكير وتشابه فى التعبير مثلما أتيح للصهيونية . وذلك لأنها ارتبطت بتاريخ قوم كانت المحافظة أبرز خصائصهم حتى لتكاد ترى فى مذبحة « دير ياسين » سلوكاً متجاوباً مع ما تصوره التوراة عن مفهوم الحرب المبيدة فى « أريحا » عند بنى إسرائيل ، وترى فى موقفهم الاستغلالى من دول الغرب القديم والحديث صورة مماثلة لما فعلوا مع مصر الفرعونية . فهم فى حربهم وفى سلمهم لا يزالون يحملون فى ثنايا نفوسهم ذلك التراث الشاذ الذى يجعل منهم وبالاً على كل من يعيشون فى وطنه كأقلية منعزلة أو من يحتلون وطنه كما فعلوا فى فلسطين قديماً وحديثاً . وليس من قبيل الصدفة أن يتفق المصريون الفراعنة والرومان والشعوب السلافية والجرمانية واللاتينية والعرب فى الشكوى من بنى إسرائيل حين يخرجون عن حدود المواطنه كأفراد ويعملون أعمالا جماعية لتقويض الأوطان التى آوتهم طوال العصور المتعاقبة وعلى ممر الحضارات

الإنسانية المتفاوتة . ونحن فى تتبع تاريخهم لا نبتغى إلا فهم الصهيونية وفهم أساليبها . وربما قال قائل ما لنا وما للتاريخ وعبره . ونحن نجيبه بأن الصهيونية تدعى أول ما تدعى أنها تحقق رسالة تاريخية من رسالات بنى إسرائيل التى وعدهم إياها « يهوه » ربهم ، وهى تخاطب بذلك الجماهير وتتخذ من هذه الأسطورة وسيلة إلى إلهاب العواطف عند عامتهم وتأليبهم على تنفيذ برنامج الاستعمار الصهيونى ، وتعبئة قواهم لتدمير الشعوب الاسلامية فى الشرق العربى بعد أن حاولوا تدمير الشعوب المسيحية فى أوربا الشرقية والوسطى ، وبعد أن فشلوا فى ذلك ولوا وجوههم قبل المشرق وقد أسندوا ظهورهم ووطدوا نفوذهم فى المغرب .

فتاريخ بنى إسرائيل فى اتصالهم بالأمم القديمة والحديثة هو مفتاح فهمهم ، والتعامل معهم ، ولسنا هنا بصدد التفاصيل وإنما مقصدنا أن نبحث عن المغزى وعن العبرة من هذا التاريخ الشاذ الذى انفردوا به بين من عرفت البشرية من شعوب منذ قديم الزمان . ولقد خلق الشذوذ فى تاريخ بنى إسرائيل شذوذاً فى نفسية القوم وسلوكهم خاصة حين يعملون مجتمعين لا أفراداً مستقلين . وموطن الشذوذ فى رأينا يكمن فى حقيقة قد تبدو متناقضة ، ولكنها حقيقة ثابتة يعرضها علينا تاريخهم آلافاً من السنين .

وتتلخص هذه الحقيقة فى أنهم قوم ليسوا متحضرين حسب المفهوم السياسى للحضارة . حقاً إن اليهود أنجبوا أفراداً ممتازين فى المعرفة الإنسانية والطبيعية ، أفراداً تحضروا بحضارة العقل والفكر ، غير أنهم لم يعرفوا الحضارة السياسية ، ولم ينطبق عليهم تعريف أرسطو للإنسان المتحضر من

أنه « حيوان سياسى » . وهنا مصدر الداء الوبيل الذى ارتبط باسم بنى إسرائيل . فهم أينما ذهبوا لا يستطيعون أن يخضعوا لحدود المعايشة السلمية كمواطنين . إنهم لا يعرفون السلوك العادى للمواطن العادى الذى يبتغى العيش العادى بأن يسير على مبدأ « خذ وأعط » فى اعتدال ، أو على مبدأ « الطاعة يوماً والتسلط يوماً آخر » فى اتزان ، أو على مبدأ الاعتراف بالتزامات المواطنة ومسئولياتها إلى جانب ما يستمتع به المواطن من حقوق ، وإنما أورثهم فقدانهم لتجربة المواطنة فى دولة خاصة بهم تطرفاً متناقضاً فى السلوك . فهم فى تصرفهم يبدون من الضعف ما يثير الشفقة فإذا ما قدروا أبدوا من العنف ما لا يقف عند حد سوى إراقة الدم . وهم فى ضعفهم وذلهم إنما يلتمسون الطريق إلى السيطرة المشوبة بالاستغلال ، وكأن أمتهم هى التى عناها شريدان بقوله « إنها تطأطىء الرأس لتغزو » . ومن ثم كان رد الفعل الذى يكاد يكون واحداً بين شعوب الأرض التى عرفت بنى إسرائيل . فتلك الشعوب التى آوتهم فى بلادها أكرمت أول الأمر لقاءهم فى ضعفهم ، فلما أساءوا إلى أصحاب البلاد الأصليين بأن عاشوا فى عزلة لا يشاركون فى مسئوليات الوطن المشتركة بل يحتفظون لأنفسهم بالغنم وعلى سواهم الغرم ، ويقودون حياتهم كما ورثوا أسلوبها عن آبائهم دون اندماج فى مواطنة حقة ، ويترقبون الفرص لاقتناص أسباب الاستغلال والسيطرة ، لم تجد تلك الشعوب سبيلا إزاء هذا السلوك الشاذ سوى الانتقاض عليهم ومحاولة وضعهم فى المكان اللائق بأقلية أجنبية بين أكثرية أصلية .

مع مصر الفرعونية :

فى ضوء هذه النظرة يجب أن نفهم موقف مصر الفرعونية من بنى إسرائيل شأنها فى ذلك شأن الشعوب الأخرى القديمة والحديثة التى سنعرض لصلتها بهم فى هذا المقام . ففرعون لم يكن المعتدى بل كان المعتدى عليه و « التوراة » وهى السجل السياسى لتاريخ اليهود كما يقول تشستر ماكس تقوم شاهداً على ذلك حتى فى مواطن الهجوم عليه ، لأنها رسمت لنا الصورة التقليدية المتناقضة عن بنى إسرائيل ، فهم فى ضعفهم سائلون متزلفون وفى قوتهم سفاكون للدماء . وهنا نعرض بعض الخطوط لهذه الصورة التاريخية التى تخدمنا فى فهم سلوك « ويزمان » الذى يقابل « فيصل بن الحسين » ويؤكد له صداقة أبناء العمومة فى الوقت الذى يطالب الغرب بأن تكون فلسطين لليهود شأنها فى ذلك شأن إنجلترا للإنجليز وفرنسا للفرنسيين ، وفى فهم سلوك « بن جوريون » الذى يعلن فى وضح النهار أن إسرائيل تمد يدها للصلح مع العرب ، وفى الليل الذى أعقب النهار يشهد العالم أنها تمد يد الغدر لتسفك دم ثلة معدودة من جند مصر البواسل فى « الصبحة » .

فماذا وجد بنو إسرائيل من مصر الفرعونية ، وماذا لقيت مصر الفرعونية جزاء منهم على ما قدمت ؟ إن « التوراة » تقص القصة وعلينا أن نحلل بعض الحقائق التى وردت مقدرين فى هذا وجهة نظر الفريقين . ومن الطريف أن بنى إسرائيل أشركوا معهم « يهوه » « ربهم » فى علاقتهم

بمصر ، فهم فى دخولهم مصر وفى خروجهم منها إنما يأتمرون بأمره ، وينفذون تعاليمه التى ترسم سياستهم ، بل إنهم لينسبون إليه أنه ينزل فعلا إلى الأرض ليشترك بنفسه فى تنفيذ تلك السياسة .

تقول التوراة : « فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر قال يعقوب لبنيه لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض . وقال إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت [١] . فذهب أبناء يعقوب إلى مصر وهنالك التقوا بأخيهم يوسف » الذى تحدث إليهم عن دوره فى مصر وعن دور مصر التى شاءت العناية الإلهية أن تكون منجاة لبنى إسرائيل من دمارهم المحقق لو تركوا دون إنقاذ فى عالم حاقت به المجاعة القاتلة ، وطلب إليهم الهجرة إلى أرض فرعون ليكتب لهم البقاء . « فقال يوسف لإخوته تقدموا إلىّ . فتقدموا . فقال أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر . والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم . لأن للجوع فى الأرض الآن سنتين . وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد . فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض وليستبقى لكم نجاة عظيمة . فالآن ليس أنتم أرسلتمونى إلى هنا بل الله . وهو قد جعلنى أبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر . أسرعوا واصعدوا إلى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف . قد جعلنى الله سيداً لكل مصر . انزل إلىّ . لا تقف.

---

(١) سفر التكوين ، الإصحاح ٤٢ .

فتسكن فى أرض جاسان وتكون قريباً منى أنت وبنوك وبنو بنيك . وغنمك و بقرك وكل مالك . وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعا لئلا تفتقر أنت و بيتك وكل مالك . وهو ذا عيونكم ترى وعينا أخى بنيامين أن فمى هو الذى يكلمكم . وتخبرون أبى بكل مجدى فى مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبى إلى هنا »[١] .

وهكذا رسم « يوسف » خطة هجرة بنى إسرائيل إلى مصر . فلما أخبر أخوة يوسف أباهم ، لم يتأخر « يهوه » رب بنى إسرائيل كذلك عن مباركة هذه الفكرة وتأييدها ، إذ كلم « إسرائيل » وأكد له أن فى مصر سيجعل منهم أمة عظيمة . وفى هذا تقول التوراة « فارتحل إسرائيل وكل ما كان له وأتى إلى بئر سبع . وذبح ذبائح لإله أبيه إسحق . فكلم الله إسرائيل فى رؤى الليل وقال يعقوب : يعقوب . فقال هانذا . فقال أنا الله إله أبيك . لا تخف من النزول إلى مصر . لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك إلى مصر . وأنا أصعدك أيضاً . ويضع يوسف يده على عينيك »[٢] . وما أن وصل بنى إسرائيل إلى مصر حتى دبر يوسف لهم الإقامة فى أرض مستقلة بهم ، إذ أوحى إليهم أن يخبروا فرعون بأنهم « أهل مواش » وذلك حسب خطابه لهم لكى تسكنوا فى أرض جاشان . لأن كل راعى غنم رجس للمصريين »[٣] . ولم يكن فرعون فى حاجة إلى دهاء أو

---

(١) سفر التكوين ، إصحاح ٤٥ .

(٢) سفر التكوين ، إصحاح ٤٦ .

(٣) سفر التكوين ، إصحاح ٤٦ .

تدبير حتى يحظى بنو إسرائيل بالعزلة فى حياتهم والاستئثار بأرض جاسان، بل دفعه تقديره ليوسف إلى أن يبالغ فى تكريمهم وحسن استقبالهم ، وأن يحقق لهم رغبتهم وما فوق رغبتهم . « فكلم فرعون يوسف قائلا أبوك وأخوتك جاءوا إلياك . أرض مصر قدامك . فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان . وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى »[١] .

ولم يقف كرم مصر مع بنى إسرائيل عند استقبالهم وإنقاذ حياتهم وحسب وإنما أحاطتهم برعايتها وفتحت أمامهم خيراتها حتى « تملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً »[٢] ، بل إن التوراة تعيد تأكيد ظاهرة ازدهارهم فى مصر بقولها « وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جدا وامتلأت الأرض منهم »[٣] . ولكن التوراة تقص علينا رأى مصر الفرعونية فى موقف بنى إسرائيل منها بعد هذا النماء وهذا التقدم الذى أحرزوه فى ديارها . وفى ثنايا ما تقصه التوراة عن هذا الموقف ، نرى جميع العناصر التى كانت ولا تزال أساس المشكلة اليهودية فى العصور القديمة والحديثة . فالتوراة تقول : « ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف . فقال لشعبه : هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون . إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض .

---

(١) سفر التكوين ٤٧ .

(٢) سفر الخروج إصحاح ١ .

(٣) سفر الخروج إصحاح ١ .

فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا . فاختشوا من بنى إسرائيل . فاستبعد المصريون بنى إسرائيل بعنف . ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل . كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً » [١] . ونحن إذا حاولنا تحليل هذا الموقف من وجهة نظر القومية المصرية القديمة التى تريد أن تحافظ على كيانها نرى (أولا) أن فرعون لم يكن ليعد بنى إسرائيل جزءاً من قومه لأنهم عاشوا فى عزلتهم عن الشعب ، ولأنهم جاءوا إلى مصر لا ليقيموا ويندمجوا ، بل ليخرجوا منها بعد أن تتجمع لهم فى مصر قوة المال والعدد . وهذا ما رسمه لهم « يهوه » ربهم إذ قال لهم مخاطباً إسرائيل « أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضاً » [٢] . ونرى (ثانياً) أن فرعون استشعر الريبة من ناحيتهم وتوجس انضمامهم إلى الأعداء أن دخلت مصر فى حرب ، فعيونهم متجهة إلى الخارج لا إلى الداخل ، ومن الغريب أن ما توقعه فرعون فى مصر القديمة كان الحقيقة الواقعة التى جربها الألمان مع اليهود فى الحرب العظمى الأولى أثناء القرن العشرين ، وذلك حين تآمرت الصهيونية مع الحلفاء على إثارة اليهود فى ألمانيا ضد الوطن الذى آواهم ، فألقى الحلفاء من الجو على مدنها وثيقة بالفور إيذاناً لهم بأن يقوموا برسالتهم التاريخية وهى رسالة الغدر الوطنى ونرى (ثالثاً) أنهم لا يعيشون إلا فى ظل حكم سياسى يستغلونه فى خدمة

---

(١) سفر خروج إصحاح ١ .
(٢) سفر تكوين إصحاح ٤٦ .

أغراضهم الاقتصادية ، فما ان ذهب يوسف وذهب النفوذ الإسرائيلى فى الحكم الذى يضمن لهم الاثراء من غير مشقة أو جهد ، حتى برموا وسخطوا واتهموا نظام الحكم الجديد بالظلم والاستبداد . ونرى (رابعاً) أن بنى إسرائيل لم يرضوا بالعمل فى صناعة البناء وصناعة الزراعة اللتين كانتا الصناعتين الأساسيتين فى مصر القديمة . ومن ثم عدوا تكليف فرعون لهم بالعمل فى هاتين الصناعتين تعذيباً وقسوة . وهو يوجههم إلى هذا العمل الذى يربطهم بالأرض ويشغلهم عن فراغهم الذى وفره لهم اشتغالهم بالأعمال المالية ، حتى يضمن ولاءهم وعدم استخدامهم وقت الفراغ لنسج الدسائس والخيانة مع أعداء مصر رغبة منهم فى الخروج منها .

وهكذا نرى بنى إسرائيل إذا ما ووجهوا بالتزامات المواطنة ومسئولياتها كسائر المواطنين المصريين ، وطلب إليهم أن يتنازلوا عن بعض وجوه الامتياز فى العيش والعمل الذى تعودوه بسيطرتهم على الحكم والاقتصاد ، أدخلوا « يهوه » ربهم فى مشاكلهم اليومية كما هى عادة التفكير عند القبائل البدائية ، وأضفوا على أمانيهم ورغباتهم قدسية إلهية تستر ما يخفونه من أنانية ، وما تنطوى عليه نفوسهم من أحقاد وبغضاء . إذ العقل العادى يرفض أن ينسب إلى إله ما نسبه بنو إسرائيل إلى « يهوه » إلههم ، إلا إذا كانوا قد جسدوا شخوصهم فى شخصية ذلك الإله . فالتوراة مملوءة بأعمال الانتقام التى تنسب إلى « يهوه » رب بنى إسرائيل ، والتى يصبها على رءوس المصريين الذين أحسنوا إلى إسرائيل وبنيه وجعلوا منهم أمة عظيمة العدد واسعة الثراء . ولا شك أن نبل فرعون يبدو واضحاً أخاذاً إذا ما قيس بأعمال

الانتقام الوحشى الماحق التى يجريها بنو إسرائيل على يد « يهوه » ربهم ولسانه وكأن رب بنى إسرائيل ليس رباً للمصريين وإنما هو رب لقبيلتهم وحسب . ففرعون يتهم بنى إسرائيل بأنهم « متكاسلون » ويطالبهم بأداء واجب العمل ويطلب إلى موسى ألا يحول بينهم وبين القيام بذلك الواجب. وإزاء هذا التوجيه الوطنى الذى يصدره فرعون ، يقرأ الواحد منا العجب فى التوراة — عما يحدثنا به كتابها ومحرفوها من معجزات الانتقام التى يرسلها « يهوه » على فرعون وشعبه حتى لينتهى من قراءته بالجزم بأن هذا الكتاب ليس مطلقاً الكتاب المقدس الخالى من التحريف والبهتان . ونحن نورد هنا بعض أعمال « يهوه » الرب عقاباً للمصريين على عدم السماح لبنى إسرائيل أن يخرجوا ويعودوا إلى أرض الميعاد . فهى سلسلة من الأعمال التى تنضح بالدم ، والتى تشهد بأن الخيال الإسرائيلى مجبول على الانتقام الذى لا يحد، خلق شخصى أو قومى أو دولى . فمياه مصر التى شرب منها بنو إسرائيل وأكلوا عند مقدمهم إلى مصر وأثناء استمرارهم فيها لم يكن نصيبها من جزاء يسديه الخيال اليهودى سوى أن تنقلب إلى دماء وأن تملأها الضفادع :

« ثم قال الرب لموسى قل لهرون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً . فيكون دم فى كل أرض مصر فى الأخشاب وفى الأحجار . ففعل هكذا موسى وهرون كما أمر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون وأمام عيون عبيده . فحول كل الماء الذى فى النهر دماً . ومات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر . فلم يقدر

المصريون أن يشربوا ماء من النهر . وكان الدم فى كل أرض مصر . وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب . . .

ثم انصرف فرعون ودخل بيته ولم يوجه قلبه إلى هذا أيضاً . وحفر جميع المصريين حوالى النهر ليشربوا . لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر .

ولما كملت سبعة أيام بعد ما ضرب الرب النهر . قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدونى . وإن كنت تأبى أن تطلقهم فيها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع . فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع .

فقال الرب لموسى قل لهرون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر . فمدّ هرون يده على مياه مصر . فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر . وفعل كذلك العرافون بسحرهم ، وأصعدوا الضفادع على أرض مصر .

فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عنى وعن شعبي فأطلق الشعب ليذبحوا للرب . فقال موسى لفرعون عين لى متى أصلى لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك وعن بيوتك ولكنها تبقى فى النهر . فقال غداً . فقال كقولك لكى تعرف أن ليس

مثل الرب إلهنا . فترتفع الضفادع عنك وعن بيوتك وعبيدك وشعبك ولكنها تبقى فى النهر» [١] .

ولا تزال قصة التوراة تسرد من أفعال الانتقام بالمصريين ما يزداد فى سلم العنف حتى يبلغ أوجه فى أن ينزل الرب ويجتاز أرض مصر ويضرب كل بكر من الناس والبهائم :

« فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة . فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين . وكان صراخ عظيم فى مصر . لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت . فدعا موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعاً واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا . وباركونى أيضاً . وألح المصريون على الشعب ليطلقوهم عاجلا من الأرض . لأنهم قالوا جميعنا أموات .

فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم . وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم . فسلبوا المصريين » [٢] .

وبهذه الخاتمة الدامية خرج بنو إسرائيل من مصر حسب قصة التوراة

---

(١) سفر الخروج إصحاح ٧ — ٨ .

(٢) سفر الخروج إصحاح ١٢ .

وخلدوا هذا الخروج على هذه الصورة بفريضة الفصح اليهودى . وسواء كانت قصة التوراة على هذا المثال قصة حقيقية أو خيالية ، دينية أو غير دينية ، فهى حقيقة على أية حال ، تعيش فى أذهان اليهود وترمز إلى رغباتهم المكبوتة وأمانيهم الدفينة . « فشعب الله المختار » فوق باقى الشعوب ، له أن يستحل دماءها ومالها ، دون أن يتقيد بقيود الأخلاق الاجتماعية أو السماوية ، وكأن القوانين التى ارتبطت بملة موسى عليه السلام لم تك لهم ، وإنما لغيرهم من العالمين . وكلما عرف شعب هذه الحقيقة من تجربته بأحفاد إسرائيل فى عيشه معهم انقلب عليهم بعد حسن استقبال وإفساح لهم فى المجال .

فالأمر لم يقف عند مصر القديمة وحدها ، بل إن اتخاذ بنى إسرائيل « الدم » أساساً لعلاقتهم بها ورمزاً للإسرائيلى وبيته ، قد استمرت وصمته عالقة بتاريخهم فى خيال الشعوب الوثنية والمسيحية . إذ لم يكن من اليسير على اليونانى والرومانى الوثنى فى القرون الأولى وعلى الأوروبى المسيحى فى العصور الوسطى والقرن التاسع عشر أن ينسى أن بنى إسرائيل قد جعلوا من الدم راية لهم فى القول الذى ورد فى التوراة على لسان الرب .

« وكلم الرب موسى وهرون فى أرض مصر قائلا . هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور . هو لكم أول شهور السنة . كلما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت . وإن كان البيت صغيراً عن أن يكون كفواً

لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس . كل واحد على حسب أكله تحسبون للشاة . تكون لكم شاة صحيحة ذكراً ابن سنة . تأخذونه من الخرفان أو من المواعز . ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر . ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل فى العشية . ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها . ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير . على أعشاب مرة يأكلونه . لا تأكلوا منه نيئاً أو طبيخاً مطبوخاً بالماء بل مشوياً بالنار . رأسه مع أكارعه وجوفه . ولا تبقوا منه إلى الصباح . والباقى منه إلى الصباح تحرقونه بالنار . وهكذا تأكلونه أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم فى أرجلكم وعصيكم فى أيديكم وتأكلونه بعجلة . هو فصح للرب . فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة . وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم . وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين . أنا الرب . ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها . فأرى الدم وأعبر عنكم . فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب . فى أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية » [1] .

---

(١) سفر الخروج إصحاح ١٢ .

مع المجتمعات الأوربية :

ولا شك فى أن هذه الصورة الرمزية لتصرف « يهوه » رب بنى إسرائيل مع أبناء مصر هى التى دعت « أبيون »"Apion" اليونانى إلى أن يعلن أن اليهود يضحون كل عام بإنسان من غير اليهود ، كما أنها هى الصورة التى أدخلت الرعب فى خيال المسيحيين فى أوربا واستمرت خلال القرون حتى لنسمع هذة التهمة تتردد فى أرجاء الإمبراطورية النمساوية أثناء القرن الماضى .

ففى المجر حدث أول اتهام من هذا النوع أثناء الحركة المعادية لليهود التى أخذت تنتقل من عاصمة إلى عاصمة فى أوربا . إذ فى بلدة « تيسزا ـ اسزلار ("Tisza-Eszlar") اختفت فتاة اسمها « استر سوليموسى ("Esther Solymossi") فى أول أبريل سنة ١٨٨٢ ، وذلك قبل عيد الفصح ("Passover") بأربعة أيام . وقد اتهم القيم على النظام فى معبد اليهود بتهمة قتلها من أجل إحياء الطقوس الدينية . ولم تكتشف جثة الفتاة ولكن قبض على عدد من اليهود وسجنوا خمسة عشر شهراً ثم قدموا للمحاكمة ، إلا أنهم برئوا فى النهاية . ولكن هذا الحكم ببراءة المتهمين لم يحل بين أعداء اليهود وبين استغلال هذا الحادث ، خاصة « الأستاذ رولنج "Rohling" أستاذ اللغة العبرية فى جامعة الدولة فى براغ "Prague" الذى بذل جهده فى إشعال هذه المسألة برسائله المنشورة ، والذى أعلن دائماً عن رغبته فى أن يقرر بعد القسم أن القتل من أجل الطقوس الدينية

عمل يهودى شائع . وقدنقلت أنباءهذا الموضوع نقلا كاملاإلى ألمانيا فأضافت كثيراً إلى نفوذ أعداء السامية . كما أن « أونودى » "Gezavon Onody" عضو البرلمان المجرى المعادى للسامية ، قد عرض تصويراً خيالياً لتلك الفتاة المفترض قتلها فى المؤتمر الأول المعادى للسامية فى « درسدن » "Dresden" ولكن تذكر الخيال الأوربى المسيحى فى العصر الحديث والوسيط لما فاخر به بنو إسرائيل أنفسهم وهم يحرفون التوراة من الإغراق فى الانتقام وسفك دماء غير اليهود ، وإصرار أوربا المسيحية فى أواخر القرن التاسع عشر على إيمانها باستمرار ظمأ بنى إسرائيل إلى الدماء ، لم يكن سوى صيحة يائسة من الأوروبيين ضد استغلال اليهود الاقتصادى لحضارة أوربا الرأسمالية وقواها المادية . فالتعبير فى حالة قضية الفتاة المجرية « اسذر سوليموسى » هو تعبير دينى ، إلا أنه فى الحقيقة ليس سوى احتجاج مادى . ولقد خدم مثل هذا الحادث قضية اليهود فى أوربا أكثر مما ضرهم . إذ بادروا إلى استخدامه فى مخاطبة الضمير الإنسانى وصوروا به اليهود وكأنهم هم الذين يحل بهم الاضطهاد لا الذين يمسكون بسياطه ويلهبون بها جلود أوربا المسيحية فى عهدها الرأسمالى كما فعلوا فى عهدها الإقطاعى . إنهم حاولوا ويحاولون أن ينقلوا عداءهم مع أوربا المسيحية من المجال الاقتصادى إلى المجال الدينى . وصوروا ويصورون الأمر وكأنه مجرد تعصب دينى . فى هذا تغطية لخطرهم الحقيقى على حياة المجتمع . إذ أن المشكلة الإسرائيلية فى العصر الحديث قد احتفظت بخصائصها التقليدية ، بل إن جوانبها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية قد ظهرت ظهوراً لم تستطع

عبقرية اليهود أن تخفيه أو تغطيه ، وتلخص الموقف عن سلوك الإسرائيلي في أوربا الحديثة في أنه عدو المجتمع الأوربي فوق عدائه للدين المسيحي.

فتهديد اليهود للمجتمعات الأوربية التي يعيشون فيها هو مصدر العداء التاريخي بينهم . وجوهر التهديد متشابه مستمر وإن اختلف في مجال عمله ومدى أثره . فاليهودي جار سيىء لغير اليهود ، ولم يعش على وفاق مع غيره من الأمم والملل طوال العصور . ويبدو أن الأنانية التي اشتهر بها هي التي قضت على قدرته في أن يكون مواطناً صالحاً أينما حل . فهو إما أن يسود وأما أن يفسد في الأرض . ولقد قيل إن الامتيازات التي استمتع بها اليهودي تحت حكم الإمبراطورية الرومانية الوثنية هي التي سببت النزاع بينه وبين جاره الوثني ، والأصح أن يقال إن الامتيازات التي استمتع بها تحت حكم مصر الفرعونية هي التي أفسدته كمواطن وجار على ممر الدهور. فتعود اليهودي الحياة الممتازة في مصر أثناء نفوذ يوسف عليه السلام ، هو الذي جعله غير قادر على أن يعيش بين المصريين مواطناً عادياً حين جاء من الفراعنة بعد « يوسف » من طلب إليه أن يحرث الأرض كغيره من المصريين المنتجين لا أن يختص بصياغة الذهب والفضة وتجارتهما . وتاريخ اليهودي في الدولة الرومانية والدولة العربية والدولة الإقطاعية والدولة الرأسمالية الحديثة ، بل في الدولة الاشتراكية بعكس الصورة التي مثلها في مصر الفرعونية .

وأن هذا التشابه والتسلسل في تاريخ اليهود هو الذي يجعل من الخطر

الذى جربه العالم الغربى مقدمة محتومة لخطرهم الحاضر على العالم العربى والإسلامى . ولا يستطاع فهم هذه المرحلة إلا إذا فهمنا المراحل التى أدت إليها . فاليهودى قد انطلق انطلاقه المعروف فى ظل الحضارة الغربية فى عهد الإمبراطورية الرومانية ، فلم يحن القرن الأول الميلادى حتى انتقل اليهود إلى الأسواق العظمى ومراكز التجارة فى تلك الإمبراطورية وأمسكوا بمفاتيح خزائنها ولقد ظهر نفوذهم المالى والاجتماعى فى المدن التى عاشوا بها ظهوراً رأى فيه مفكرو الرومان أنه مصدر خطر على قيمهم وعاداتهم فقال « سينيكا »("Seneca")قوله المشهور « إن عادات هذه الأمة المجرمة ينتشر أثرها بسرعة حتى أصبح لها مناصرون فى كل بلد ، ومن ثم فالمغزوون يفرضون قوانينهم على الغازى » . ولم يتخلف نفوذهم بعد اعتناق الإمبراطورية الرومانية المسيحية عما كان عليه فى عهدها الوثنى ، وإنما ازداد نتيجة تركزهم فى المهن التجارية والمالية . ثم جاءت الفتوحات الإسلامية فى الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط فهيأت لهم فرصة احتكار التجارة فى أسواق إفريقية وسوريا . وبما جنوا من ثروة فى العالم المسيحى والإسلامى ، وما برعوا فيه من تخصص فى شئون المال والتجارة ، هاجروا مختارين إلى المدن التجارية الجديدة التى نشأت فى شمال أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما هاجروا من قبل إلى المدن التجارية فى الإمبراطورية الرومانية .

مع الدول المسيحية فى العصور الوسطى :

ولكن سلوك اليهود التقليدى الذى عرفه عنهم التاريخ القديم والحديث ما كان ليحفظ عليهم العمل الهادئ أو الإقامة المستقرة أو الهجرة المختارة فى العصور الوسطى كذلك . إذ اضطرتهم الإمارات المسيحية فى أكثر من حالة إلى الجلاء القهرى والهجرة القسرية ، فاتجهوا صوب الشمال الشرقى فى أوربا — إلى ألمانيا الشرقية وبوهيميا وخاصة بولندا . كما أن اليهود الإنجليز قضى عليهم جميعاً فى سنة ١٢٩٠ بالنفى ، وتبعت إنجلترا فى ذلك فرنسا ومدن أوربا الوسطى ودولها . وبلغ ذلك الإجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من إسبانيا والبرتغال فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر . ولم ينج من هذه المعاملة سوى الجماعات اليهودية الصغيرة فى إيطاليا . فلم كان هذا الإخراج من الديار الذى تجاوب مثله فى أنحاء أوربا المسيحية أثناء القرون الوسطى ؟ إنه إخراج وليس خروجاً كما حدث فى مصر القديمة ، بل إن فرعون أظهر حرصاً على بقائهم فى ربوع بلاده على أن يعدّلوا من أساوب حياتهم ، أما مسيحيو العصور الوسطى فلم يروا نجاة من الخطر اليهودى إلا فى إبعادهم إبعاداً غير مشروط .

إن هذا السبب فى هذا الإخراج الجماعى لليهود من الأوطان المسيحية التى استوطنوها يقوم على الإحساس بالخطر من اليهود المقيمين ، واعتبارهم أجانب لا مواطنين ، لأن الأقليات السورية واليونانية وغيرها التى هاجرت مع اليهود إلى دول أوربا قد اندمجت فى شعوبها قبل القرن الحادى عشر ،

ولكن الأقلية اليهودية عاشت أول ما عاشت مختارة فى أحياء خاصة بها ثم أرغمت بعد ذلك على الإقامة بها تجنباً لشرها واختلافها عن الباقين . ورأى المسيحى نتيجة تجربته أنه معول من المعاول الهدامة فى بنيان المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وذهب به الخوف منه إلى أن يتصور عنه أشنع التصورات العدائية للدين المسيحى ومعتنقيه ، وأن يكسو مخاوفه الحيوية بأخرى دينية وأسطورية . فلم يكن هنالك أفعل فى ذهن المسيحى وخياله من أن يرى ببصره بيوت المسيحيين تنهار دعائمها وتتقوض جدرانها من أثر الربا الفاحش الذى ارتبط باسم اليهودى بل أصبح عنواناً له وتجسيا لشخصه . فالمدين المسيحى لم يعد له كيان اقتصادى أمام مغالاة المرابين اليهود فى فرض النسب الخيالية للفائدة على قروضهم . ولقد كانت النسب الهائلة للفائدة على الأموال المقترضة سبباً فى أن دمرت عدداً لا يحصى من المدينين وجعلت من المرابين اليهود أكثر الطبقات تعرضاً للبغض فى أوربا . واضطر المرابون اليهود فى فرنسا فى منتصف القرن الرابع عشر إلى أن يخفضوا الفائدة على رباهم فى المناطق الزراعية من بنسين إلى بنس واحد أسبوعياً فى الجنيه أى من ٤٣ $\frac{١}{٣}$٪ فى المائة إلى ٢١ $\frac{٢}{٣}$٪ فى المائة وذلك لفقر الفلاحين المدقع ولكن فى سنة ١٣٦٠ حين ازداد الفلاحون فقراً بسبب الحروب والوباء والمحاصيل السيئة ، ازداد الربا فجأة إلى أربعة بنسات (٨٦ $\frac{٢}{٣}$ فى المائة) لأنه كان على التاج أن يجمع مبالغ هائلة ليدفع للإنجليز الفدية المطلوبة عن الملك ، يوحنا الطيب ، الذى أخذ أسيراً فى موقعة « بواتييه » . وإن كان هذا ما صنعه مرابو اليهود بأهل فرنسا ، فإن ما

صنعوه بغيرهم من سكان أجزاء الإمبراطورية الرومانية لم يكن دون ذلك أثناء العصور الوسطى .

ولقد كان لهذا العامل الاقتصادي الهدام فى حياة الأوربيين أثراً غير صحى فى المجتمع . إذ قابل الناس هذا الاستغلال بالحنق على اليهود وازدرائهم كما أحيي فيهم التعصب المتبادل بين اليهودية والمسيحية والذى ترجع جذوره إلى مهد المسيحية وما صادفته من غدر يهودى وجه إلى نبيها . وتبادل الطرفان التهم وأعمال الانتقام . ووجد الناس فى الكنيسة المسيحية معبراً عما تنطوى عليه نفوسهم من مقت استشعروه فى معاملاتهم اليومية . فالكنيسة صورت اليهود تصويراً مثيراً للكره فى مؤلفاتها الدينية ورواياتها الشعبية ، وأعمالها الفنية . ولقد انتهى اجتماع التجربة الواقعية والعداوة الدينية والتعاليم الكنسية إلى أن يرسم فى أذهان عامة المسيحيين الصورة التقليدية عن اليهودى والتى يبين « باركس » خطوطها الرئيسية فى قوله : « لقد كان معتقداً أن اليهودي يطلب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية وأنه يسرق الأطفال المسيحيين ويقتلهم لهذه الحاجات . وكان معتقداً أنه يسمم الآبار وينشر الأمراض . وانتشرت الإشاعات دائماً من بلد إلى بلد بأنه فى حلف مع العرب المسلمين والتتر وجميع أعداء المسيحية . ولقد كان فى ذاكرة عامة أوربا يمثل أكثر من مجرد البلاء الاقتصادي ، فقد كان يمثل العدو الخبيث الخطر الذى يسعى أبد الدهر ليحطم كلا من بدن العدو المسيحى ونفسه » .

ولم تمت العداوة المريرة بين المسيحى واليهودى حتى بعد انتهاء العصور

الوسطى . وكل ما يحدث أنها تختفى لتظهر ، مع اختفاء اليهود وظهورهم كقوة من قوى المجتمع المسيحى. فطردهم الشامل من إسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر أعاد انتشارهم ، فهاجروا إلى بلاد البلقان وسوريا ومدن شمال إفريقية كما أنشأوا على التدريج جماعات يهودية جديدة هامة فى هولندا وإنجلترا والمدن التجارية المحاذية للإطلنطى من همبورج إلى بايون . وقد أضاف إلى هذه الجماعات اليهودية اللاجئة إلى الغرب ما حدث من اضطراب فى القرن التالى بين طوائف اليهود فى بولندا التى تجمعت من قبل على حد روسيا ، فلحقت جماعات منها بمراكز اليهود الإسبان . وهنالك كانوا يعرفون باليهود الإسبان واليهود « الألمان » ، وكان الاحترام على وجه العموم من نصيب الأول ، والازدراء من نصيب الآخرين . ولكن واصلت الطائفتان فى المراكز الجديدة الأعمال التقليدية التى آثرها اليهود طوال الأجيال وهى أعمال التجارة والمال .

فى الدولة الحديثة :

وفى الواقع أن تخصص اليهود فى شئون المال حفظ لهم على الدوام مكاناً فى الحضارات المتتابعة رغم ما كان الأهلون يحملون لهم من ضغن وازدراء . فكانت الصلة بين اليهود وبين الدول التى تؤويهم قائمة على الأساس الوظيفى لا الأخلاقى . وكثيراً ما كان الحكام لصالحهم الخاص يشجعون هذه الصلة ويحمونها بما كان اليهود يقدمون من رشاوى لهم . لأن اليهودى قد علمه تاريخه المضطرب غير المستقر وعلمته وسائله المنحرفة فى الحياة أن

رشوة صاحب السلطة أولى وظائف المال لأن فى ذلك أمنه وازدهاره . ولكن الأمر له جانب أعمق من ذلك . فأعمال المال والتجارة أصبحت جزءاً أساسياً فى عمليات الحضارة الرأسمالية الحديثة . وقد كان اليهودي من أوائل من أحسوا بهذا التطور الحضارى . فأخذ فى ظل النظام الإقطاعى يحاول إلى جانب خدمته الأمراء الإقطاعيين أن يهاجر إلى المدن التجارية الجديدة ، وأن يتخذ له فيها مركزاً أصيلا موجهاً . فمنذ القرن الثانى عشر والثالث عشر وهو يتنقل من مدينة تجارية فى أوربا إلى مدينة تجارية أخرى ، وبذلك عاصر نمو الحضارة الرأسمالية التى اتخذت فيها إدارة الأعمال وحركة رءوس المال دوراً إيجابياً ، واتخذت فيها المدن مكاناً رئيسياً ، وجعلت الطبقة الوسطى من سكان المدن وأصحاب القوة الاقتصادية الجديدة ترفع رأسها رويداً إلى أن أخذت القيادة فى القرن التاسع عشر من أصحاب الإقطاع الأقدمين . وبين الطبقة الوسطى الرأسمالية وجد اليهودي نفسه وكأنه فى بيته وبين عشيرته وأهله ، إذ أصبحت له وظيفة جوهرية فى حياتهم الحضارية ، إن لم يكن قد أصبح الرائد الحقيقى لحضارة جديدة ازدهرت بالمادة وتجردت من الروح .

وفى الواقع أن القرن التاسع عشر ذو أهمية عظيمة فى حياة اليهود ، لأنه كما قيل عصر « صنع من أجلهم » ، فكيفوا أنفسهم تكييفاً يكاد يكون تاماً للعيش فيه والمشاركة فى نشاطه . وقد أصبح هذا ممكناً لأن القرن التاسع عشر لم يولد إلا بعد أن مهدت لميلاده ثورتان : الثورة الفرنسية والثورة الصناعية فى إنجلترا . وكلا الثورتين أحدثتا تغييراً كبيراً فى نظام المجتمع

السياسي والاقتصادى . فأعطى هذا التغيير المجال لنشاط اليهود نشاطاً كاملا فى الهدم والبناء على السواء ، وربط بين حياته ، وبين الثورة الجديدة ، ومن ثم كان نفعه وكان خطره فى الوقت ذاته .

فالثورة الفرنسية جاءت بنظريات سياسية تدعو الى الحقوق الطبيعية للإنسان وأهمها الحرية والمساواة ، ولم تحاول أن تستثنى من التمتع بهذه الحقوق فرداً من الأفراد أو جماعة من الجماعات . وكان اليهود فى أوربا من أبرز الجماعات التى أفادت من هذا الجو الحر ومن هذه الحركة التحريرية خاصة وأن هذه النظريات السياسية قد وجدت فى نابليون وفتوحاته التى امتدت إلى جميع أنحاء أوربا وسيلة للتنفيذ الفعلى . فأمام غزوات نابليون سقطت جدران أحياء اليهود فى كل مكان ، وبالرغم من رد الفعل الذى حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون ، فإن الرجعية لم تشمل على وجه العموم ما ناله اليهود من حقوق فى الحرية والمساواة . إذ خرج اليهود من أحيائهم (التى اختاروا العزلة فيها أول الأمر ثم فرض عليهم الإقامة فيها بعد ما احتدم العداء بينهم وبين المسيحيين) ، وخرجوا كذلك من أزيائهم التقليدية ، فأصبحوا يلبسون اللباس الأوربى العادى ويلبسون معه لباس التحرر الظاهرى فى العقائد الدينية ، وحاول بعضهم أن يتنصر التماساً للمشاركة التامة فى حياة الأوربيين ومثال ذلك المشهور دزرائيلى الذى أصرت أمه على تعميده وأن تغسل بماء التعميد كل ما يحمله ابنها من مظاهر التمييز الطائفى .

ولكن هل كان مفهوم التحرير عند اليهودى هو المفهوم نفسه عند

الأوربى المسيحى ؟ إن ذلك لم يكن مستطاعاً ، لأن اليهودى لم يشارك المسيحى فى بناء المجتمع الأوربى ولم يعش معه فيه حتى يدرك جوهر دعامات المجتمع من تقاليد متوارثة وقيم مجربة . بل مفهوم التحرير عند اليهودى أخذ معنى الثورة والثورة المستمرة التى لا تهادن ولا تلين إلا إذا أسقطت أركان المجتمع المسيحى والكنيسة المسيحية جميعها . فحمل فأسه وانطلق يهدم فى ثوب الناقد ، ويكيل السخر كيلاً لكل ما هو قديم ، دون أن يستشعر أى تردد أمام هدمه كما فعل الأوربى المسيحى . لذلك لم يكن أمراً مستغرباً أن يشترك اليهود اشتراكاً فعالا فى ثورة سنة ١٨٤٨ التى عمت أوربا والتى لم يكتب لها النجاح والتى ما يزال كتاب اليهود يعدون فشلها مأساة التاريخ الحديث والعالم المعاصر ، إذ وجدت الطبقة الوسطى الجديدة بين اليهود أن مصالحها مرتبطة بمصالح الثوار . فأصبح « أدولف كريميه Adolpohe Crémieux وهو من الشخصيات البارزة بين يهود فرنسا وزيراً للعدل فى الحكومة الجمهورية الجديدة ، كما أن « جابرييل ريسر » "Gabriel Riesser" وهو من دعاة التحرير فى ألمانيا عين نائباً لرئيس « المجلس التأسيسى » الذى كان من مهمته أن يعد دستوراً لإمبراطورية سنة ١٨٤٨ الألمانية القصيرة الأجل . وفى المجر تطوع اليهود للحرب تحت إمرة « كوسوث » "Kossuth" . وهكذا رأى الأوربيون فى كل بلاد القارة أن اليهود الذين ولد تحريرهم فى مهاد الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية من قبلها ، يدأبون على تجدد الثورات ويعملون فى خلقها ، حتى يستكملوا كل مقومات المجتمع الأوربى الذى يتفق فى قيمه وصالح

اليهود فى القرن التاسع عشر .

ولقد زاد نشاط اليهود الاجتماعى والسياسى خطراً على المجتمع الأوربى ما هيأه لهم القرن التاسع عشر من نشاط اقتصادى غير عادي . إذ امتاز هذا القرن بالانقلاب الصناعى فى بريطانيا وما أحدثه من توسع فى الإنتاج وتوسع فى التوزيع والتجارة الدولية ، كما اشتهر بالتوسع المالى العالمى والمضاربات الجريئة والتجريبية . ولقد كان اليهود بتجربتهم الطويلة المتصلة فى شئون المال وإدارة الأعمال منذ أن تولى يوسف عليه السلام خزائن فرعون وأشرف على ماليته وتموين بلاده أصلح ما يكون للإفادة من هذا التطور وتوجيهه الوجهة التى تخدم مصالحهم . وإذ كان اليهود منتشرين فى الأرض فقد أصبح هذا الانتشار مزية تخدم مطالب التشابك الاقتصادى الحديث وأحسن مثال لاستغلال انتشار اليهود فى أرجاء أوربا ، قيام الأخوة الخمسة من أبناء « روتشيلد » بتأسيس بيوتهم المالية فى خمس عواصم أوربية لندن وفينا وباريس ونابلى وفرانكفورت ، وتعاونهم تعاوناً وثيقاً فى السيطرة على أسواق أوربا بل وعلى سواها من الأسواق العالمية المتصلة بالرأسمالية الأوربية . ولقد سيطر بيت روتشيلد بهذا التعاون اليهودى الدولى والخبرة اليهودية فى شئون المال على مصائر كثير من الأفراد بل والبيوتات المالية ، وساهم فى توجيه اقتصاديات أوربا توجيهاً محسوساً ، ولم تكن سيطرته ومساهمته لصالح الأفراد والشعوب دائماً . ولقد لمسنا فى مصر أثناء القرن الماضى أثر بيت روتشيلد فى شراء أسهم قنال السويس من الخديو إسماعيل حين استعان بهم دزرائيلى فى تلك الصفقة التجارية السياسية ، كما

أن أثر بيت روتشيلد الفرنسي قد ظهر ظهوراً واضحاً أثناء حكم « لويس ـ فيليب » (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) والجمهورية الثانية التى تلته ، إذ عزى إليه أن له دخلا كبيراً فيما حدث حينئذ من مضاربات مالية عديدة واسعة المدى . ولقد بلغ السخط فى فرنسا على بيت روتشيلد مبلغاً جعل طبقات الشعب جميعها سواء من رجال الدين أو الأرستقراط أو العمال يعتبرون اليهود عدوهم الأول . ولم يقف السخط على الرأسمالية اليهودية عند حدود فرنسا وحدها ، بل تجاوب طيلة القرن التاسع عشر غربى أوربا ووسطها وشرقيها ونشأت بين المفكرين الأوربيين ـ خاصة الفرنسيين والألمان ـ حين لاحظوا الأثر اليهودى الهدام فى ميدان الاجتماع والسياسة والاقتصاد فلسفة اجتماعية عدوانية اتجهت نحو محاربة نشاط اليهود الاجتماعى والسياسى فى أوربا لا محاربة دينهم ، وقد صيغ فى ألمانيا اصطلاح « محاربة السامية » للدلالة على هذه الحركة ، مطلقين فى ذلك التعبير العام على الخاص ، لأن اليهود من بين الجنس السامى هم مصدر الخطر الحديث على أوربا ، بل هم الذين عانت منهم وعرفت نفوذهم .

فى الفكر الأوربى :

ولقد وضع الفرنسيون أساس هذه الفلسفة التى كشفت النقاب عن الخطر اليهودى وتبعهم فى ذلك الألمان . ففى سنة ١٨٤٥ نشر « ا . توسينل » "A. Toussenel" كتاباً عنوانه « اليهود ، ملوك العصر : تاريخ الإقطاع المالى » وقد أوحى بمواد هذا الكتاب وموضوعه ما ظهر من فضائح مالية واستغلال

أنانى للمالية الفرنسية فى ذلك العهد، وما كان لليهود فى ذلك من دور كبير. ومن الطريف أن الكاتب فى هذا المؤلف قد شمل تحت عنوان اليهود ، الإنجليز والهولنديين وأهل جنيف من البروتستانت الذين يتعلمون كيف يقرأون إرادة الله فى نفس الكتاب الذى يتعلم منه اليهود والذين يقابلون بالازدراء قوانين العدل وحقوق العاملين ، وذلك لأخذهم بما أخذ به اليهود من أخلاقيات المال والصناعة والمضاربة . ونشر « الكونت دى جوبينو » "Count de Gobineau" فى سنة ١٨٥٤ بحثاً آخر عنوانه « مقال عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية » وفيه أبان الفرق بين الآرى والسامى ، وقصد به أن يهاجم نشاط اليهود السياسى كما هاجم « توسينل » نشاطهم الاقتصادى المدمر . ثم جاء كاتب ثالث فرنسى فكتب فى سنة ١٨٦٩ كتاباً عنوانه « اليهودى . واليهودية . وتهديد الشعوب المسيحية » . وصاحب هذا الكتاب « جوجينو ده موسو » "Gougenot des Mousseaux" رجل من رجال الدين وقد حاول أن يبين خطر اليهود فى ميدان الدين والثقافة كما أبان « توسينل » و « جوبينو » خطرهم فى ميدان الاقتصاد والسياسة . ومما أكد فى كتابه أن اليهود لا يقيمون وزناً ولا يؤمنون بصحة ما يلتزمون به نحو غير اليهود من قسم أو يمين . كما أن مصدر خطرهم يكمن فى محاولتهم القضاء على الروحية فى العالم المتدين وتغليبهم المادة على الروح . ولقد دفع هذا السلوك الأوربيين إلى أن يتلفتوا حولهم باحثين عن المؤلفات التى تساعدهم على فهم اليهود ، فأخذوا يقرأون كتابات العالم الألمانى « ايزنمنجر "Eisenmenger" التى كتبها فى القرن الثامن عشر عن تعاليم التلمود

المعادية للمجتمع . كما أخذوا يقرأون كتابات اليهود الذين تنصروا وفيها يكشفون النزعات الهدامة لبعض التعاليم اليهودية ، خاصة كتابات الأب « جوزيف ليمان » "Joseph Lémann" التي كان لها أثر في محاكمة « دريفوس » .

وإذ اشتركت دول أوربا جميعها في التعرض لخطر اليهود الهدام في مجتمع القرن التاسع عشر ، نرى رد الفعل يكاد يكون متشابهاً . بل إنه قد أخذ يتبلور حتى رأيناه يتفجر في شكل حركات شعبية في ألمانيا وفرنسا والنمسا والمجر وبولندا ورومانيا وروسيا أثناء الجيل الأخير من القرن الماضي والذي يعتبر البدء الحقيقي لمشكلة اليهود في القرن الحالي . ففي ألمانيا نشر « مار » "Wilhelm Marr" وهو صحفي في هامبورج سنة ١٨٧٣ رسالة صغيرة عنوانها « انتصار اليهودية على الجرمانية » . وإن كان « مار » قد لاحظ أن هذا الانتصار اقتصادي في مظاهره إلا أنه وجد أن اختلاف اليهود في الجنس هو الذي دفعهم إلى التماس هذا الانتصار بوسائل مالية ضالة منحرفة ، ورأى أن هذا السلوك يستتبع محاربة اليهود ونفوذهم التخريبي . ولا شك في أن « مار » قد اعتمد في نظريته العنصرية على نظرية « جربينو » الفيلسوف السياسي الفرنسي . وقد هيأت ظروف سلسلة من الفضائح المالية في ألمانيا اشترك فيها اليهود ، الجو لاشتعال هذا العداء العنصري ، حتى لقد أخذ به « بسمارك » في برنامجه السياسي سنة ١٨٧٩ خاصة وأنه وجد خصومة عنيفة لسياسته الجمركية من حزب الأحرار الذي كان يتزعمه

اليهوديان « لاسكر » "Lasker" و « بامبرجر » "Bamberger" . وسار في ألمانيا بعد ذلك العداء نحو اليهود في عالم الفكر وعالم السياسة جنباً لجنب ففيلسوف ألمانيا السياسي « تريتشكة» "Heinrich von Trutschke" نمي نظرية التعارض بين الآرية واليهودية ، ونشرها من كرسيه في جامعة برلين ، وخلق الجملة التي ذهبت مثلا بين الألمان « إن اليهود بلاؤنا » كما ساهم الفيلسوف « نيتشه » "Nieteche" في حركة احتقار اليهود في ألمانيا . ولكن المرجع الكلاسيكي عن نبذ اليهود كجنس ، يتمثل في كتاب « أمس القرن التاسع عشر » الذي كتبه عالم ألماني من مولد إنجليزي هو « تشامبرلين » "Houston Stewart Clamberlain" ولقد ظل هذا الكتاب مرجعاً إلى أن أخذ مكانه كتاب « كفاحي » الذي ألفه « هتلر » دستوراً للحركة النازية .

في ألمانيا أثناء القرن التاسع عشر :

ولم تكن هذه المؤلفات الفكرية عن السياسة الأوربية لمناهضة اليهود وأثرهم المفسد في الحضارة الصناعية البورجوازية أثناء القرن التاسع عشر إلا ينابيع لحركات المقاومة سواء كانت حزبية . أو شعبية . فقد أصبحت هذه المؤلفات مراجع لتبرير التكتل الأوربي ضد الخطر اليهودي . وتنقلت الأفكار الأساسية عن ذلك الخطر على الجنس والسياسة والاقتصاد والدين بين دول أوربا سواء المتحضر منها بحضارة الغرب الجديدة أو الباقي على

النظام الإقطاعى . وذلك لأن الفكر فى حالة التهديد اليهودي لم يكن مستورداً من السماء أو السحاب وإنما كان تابعاً من التجربة العادية التى كان يقابلها المواطن العادى فى علاقته اليومية مع اليهود . ولذلك ترجمت الأفكار إلى منظمات سياسية . فى المانيا تكونت « عصبة محاربة السامية » تحت زعامة القسيس اللوثرى « أدولف شتوكر » "Adolf Stoccker" الذى أسس اتحاد العمال الاشتراكى المسيحى » ، والذى كان عضواً فى الريشتاغ . وقد زاد الحركة لهيباً وانتشاراً بين جماهير الشعب أن ظهر زعيم شعبي فى شخص « هرمان آلفاردت » "Hermann Ahlwardt" الذى استطاع فى سنة ١٨٩١ أن يقيم فى محكمة « زانتين قرب دوسلدورف» "Xanten near Dusseldorf" قضية قتل من أجل طقوس اليهود الدينية. ولو أن المحاكمة انتهت برفض القضية إلا أن إصرار « شتوكر » فى الريشتاغ على صحة الاتهام أدى إلى إعادة محاكمة اليهودى المتهم فى سنة ١٨٩٢ . ولم يثبت القتل فى كلا الحالتين . غير أن أمثال هذه الحركات الشعبية قد جمعت تأييد المحافظين والمتدينين والمتطرفين فى الإصلاح والوطنية ووجهته نحو العدو المشترك فى نهاية القرن التاسع عشر ، ولم يمت هذا العداء وإنما استقر فى أعماق الشعب الألمانى تغذيه الجامعات والأحداث إلى أن ظهر مع حركة النازية ظهوره التاريخى فى القرن العشرين .

فى الإمبراطورية النمسوية المجرية أثناء القرن التاسع عشر :

وكما تعاون الفكر والسياسة فى محاربة اليهود فى ألمانيا ، تعاونا فى الإمبراطورية النمسوية المجرية بقسميها المجرى والنمسوى . فنى المجر كان للقسيس الكاثوليكى « رولنج » "Augustus Rohling" أعمق الأثر فى إزاحة الستار عما تشتمل عليه تعاليم اليهود القديمة خاصة ما جاء منها فى التلمود من دعوة إلى تدمير غير اليهود ، وقد ضمن هذه الأفكار فى كتابه الذى نشره قبل أن يترك ألمانيا إلى المجر فى سنة ١٨٧١ وعنوانه « يهود التلمود » وما أن عين أستاذاً لكرسى الديانة الكاثوليكية فى جامعة براغ حين كانت إقليماً من أقاليم الإمبراطورية النمساوية ، حتى انتشر ذكره وعمق أثره ، وتجاوبت تعاليمه مع الحركة السياسية المعادية لليهود فى براغ ومن ثم نرى هنالك ارتفاع السخط والشكوى من سلوك اليهود وانتقاضهم على المواطنة الحقة فى كل ميدان . فى الجامعة والكنيسة والبرلمان . ولم يكن القسم النمساوى من الإمبراطورية بأهدأ حالا من الناحية السياسية إذ تيقظ الوطنيون فى فينا لما يمثله اليهود فى حياة الإمبراطورية من عوامل الفساد والاستغلال فوضعوا أسس الحركة المعادية لليهود . وكان من أبرز قوادها الدكتور « لوجر » الذى بارك البابا حزبه فى سنة ١٨٩٥ والذى انتخب محافظا لمدينة فينا فى العام نفسه . ولكن قاوم الإمبراطور انتخابه بأن رفض تعيينه فى منصبه ولم يوافق على ذلك إلا بعد أن أعيد انتخابه أربع مرات . وإصرار أهل فينا على انتخاب الدكتور لوجر رغم معارضة الإمبراطور دليل واضح على القوة التى بلغها بين الشعب زعماء النظام الذى

استهدف محاربة اليهود وأثرهم الاجتماعى ، وعلى تأصل جذور المدرسة التى تعلم عنها هتلر فى صباه دعائم فلسفته

فى فرنسا أثناء القرن التاسع عشر :

ولم تتخلف فرنسا عن ركب المحاربين لنفوذ اليهود الذى امتد إلى جميع الميادين من سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية . لأنه على قدر ما جنى اليهود من مزايا الصبغة العالمية التى اصطبغت بها حضارة القرن التاسع عشر الصناعية الرأسمالية ، لاقوا من الشرور التى تنطوى عليها تلك المزايا. فانتشارهم فى أنحاء أوربا والعالم كان الدعامة التى ارتكزوا عليها ليجنوا خيرات السوق العالمية الجديدة الموحدة فى ظل الرأسمالية المتحركة . ولكن على قدر ما كان استغلالهم عالمياً كانت حركة المقاومة عالمية أيضاً . فحين تألمت برلين ، تألمت براغ وفينا وكذلك باريس . وإن كان الفرنسيون قد وضعوا أصبع أوربا الحديثة على موطن الداء الجديد بما ألف كتابهم عن خطر اليهود ، فقد واصلوا أيضاً كشف الداء . فكان « إدوارد دريمون » الصحفى البارع الأسلوب زعيم الكتاب الفرنسيين فى هذا المجال أثناء العشرين عاماً الأخيرة من القرن التاسع عشر . إذ ألف كتاب «فرنسا اليهودية» الذى تدفقت من نسخه عشرات الآلاف كل شهر من مطابع باريس ، وتلقفته الأذهان تلقفاً نادر المثال . كما أنه أسس صحيفة « القول الحر » فى سنة ١٨٩٢ فاستطاع بكتابه وصحيفته أن يقدم غذاء حياً مثيرا لحملة سياسية قوية ضد عدو أوربا المشترك . وجاءت الفضائح السياسية

المالية التي اشترك فيها ثلاثة من مشاهير اليهود المضاربين ، تؤيد بالعمل ما ينادى به الأحرار من قول . وكان من أثر ما جربه الناس على يد اليهود من خداع مالى أن انحاز بعضهم إلى تأييد اتهام « دريفوس » الضابط اليهودى فى تآمره مع الألمان ونقله أسراراً حربية فرنسية إلى قيادتهم . ولكن ضمير فرنسا لم يترك ذلك الاتهام يلصق بذلك الضابط بعد أن تبين براءته ، فبرئ دريفوس من تهمته العسكرية ولكن فى الواقع أن هذه التهمة ليست إلا من قبيل التهم التى وجهتها ألمانيا والمجر فى القرن التاسع عشر ووجهتها أوربا فى العصور الوسطى إلى اليهود من ناحية استباحتهم إهراق دماء غير اليهود لأغراض طقوسهم الدينية . فهى تهم يدفع إليها الذعر من أثر هذا العدو الذى يعصر حياة غيره فى سوق المال ، كما يدفع إليها اليأس فى علاج هذا العدو الجاثم على صدر ضحيته ، تؤيده فى ذلك نظم الحكم التى تتحالف معه فى استغلال الشعوب .

ولكن العواطف والحركات التى أثارها السلوك اليهودى فى دول أوربا الغربية وجدت صوراً مشابهة لها فى دول أوربا الشرقية . فاستغلال اليهود فى القرن التاسع عشر لدول أوربا الشرقية خاصة رومانيا وروسيا وبلاد البلقان الواقعة تحت سيادة تركيا اصطبغ بحالة تلك الدول التى كانت عليها منذ العصور الوسطى . فعلى حين كان الاستغلال اليهودى لدول أوربا الغربية متمشياً مع التطورات الحديثة فى نظم الرأسمالية ، كان استغلالهم للدول الشرقية متأثراً بالنظم الإقطاعية السائدة .

فى رومانيا :

فنى رومانيا كان اليهود يعملون كوسطاء ووكلاء للنبلاء ، وقد زاد من أهميتهم أن الطبقة الوسطى فى رومانيا كانت صغيرة جداً . وكان الفلاحون فى حالة من البساطة والسذاجة مكنت استغلالهم بواسطة نبلاء الإقطاع ووكلائهم اليهود ، وكان اليهود فى كلا الحالين هم أداة الاستغلال لصالح النبلاء وصالحهم الخاص فابغضهم شعب رومانيا بغضاً عميقاً لأنه رأى فيهم أصحاب السيطرة الحقيقية على مصائرهم المعاشية ، خاصة وأنهم قد أضافوا إلى مقدرتهم على استغلالهم باسم النبلاء . استغلالهم عن طريق أعمالهم كأصحاب المتاجر ومقرضى المال ومرابيه . ولقد زاد السخط بين شعب رومانيا مع الزمن حتى تعددت الاضطرابات وانتهت بثورة ضد اليهود وملاك الأرض فى سنة ١٩٠٧ احتاجت إلى مائة ألف جندى لإخمادها .

وأن موقف اليهود من رومانيا جدير بالدراسة عندنا فى بلاد الشرق الأوسط لا لأنه يصور استغلالهم التقليدى للشعوب وحسب . وإنما لأنه يسجل خطوة من الخطوات الأولى فى السياسة الحديثة لليهودية العالمية التى حاولت أن تستغل الدول الغربية ونفوذها فى تحقيق مطالبهم الخاصة . فرومانيا لم تتوحد أقاليمها إلا فى سنة ١٨٥٩ ، ولم ينل اليهود فيها حقوقهم السياسية كما نالوها فى دول أوربا الغربية ،وظلوا محرومين من حق المواطنة . ولذلك نرى اليهود فى دول أوربا الغربية يستخدمون نفوذهم الواسع الجديد فى حضارة القرن التاسع عشر ، للضغط على رومانيا حتى تسمح لليهود

بحقوق المواطنة كسائر المسيحيين من المواطنين . وحدث نتيجة للتدخل اليهودى عن طريق المنظمات اليهودية السياسية أن « مؤتمر برلين » الذى انعقد فى سنة ١٨٧٨ لتسوية المسألة الشرقية جعل الاعتراف برومانيا مشروطاً بمنحها المواطنة والتمتع بالحقوق السياسية لجميع المقيمين فى حدودها دون نظر إلى المعتقدات الدينية . ولكن نسى مؤتمر برلين أن ما يسهل تقريره على الورق قد يصعب تنفيذه فى الواقع ، لأن بغض شعب رومانيا لليهود من أثر تجربتهم اليومية كان أعمق من أن يمحوه قرار سياسى دولى ، فما كان من رومانيا أمام إصرار الدول الغربية على وجهة نظرها فى تحرير اليهود بين ربوعها إلا أن قيدت ذلك الحق واشترطت فى منح التجنس أن يكون أمراً فردياً يعطى لكل فرد على حدة بقوانين من البرلمان . ولذلك ظل اليهود فى معظمهم أجانب مقيمين فى رومانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وهكذا نري بهذا المثال المحسوس فى السياسة الدولية أن اليهود بتنظيماتهم الموحدة فى عالم السياسة — شأنها شأن تنظيماتهم الموحدة فى عالم الاقتصاد — استطاعوا أن يستغلوا الدول الغربية فى تنفيذ مآربهم ومصالحهم قبل أن يجعلوا من هذا الأسلوب مادة مقررة من مواد السياسة الصهيونية التى وضعها مؤتمرهم فى بال سنة ١٨٩٧ .

فى روسيا القيصرية والشيوعية :

وإن كان تاريخ اليهود فى رومانيا قد حفل بالحوادث أثناء القرن التاسع عشر ، إلا أن تاريخهم فى روسيا وهى الدولة الأوربية الشرقية الكبيرة قد

تجاوب فى أحداثه وبعد أثره على نطاق امتد فى الزمان والمكان امتداداً اتفق ومكانة روسيا وظروفها من ناحية ، كما اتفق مع احتشاد جماعات اليهود خلال العصور داخل حدودها من ناحية أخرى .فقد اتخذت موجات الاستيطان عند اليهود فى أوربا طريقين رئيسيين منذ البدء ، أحدهما سار من الجنوب الغربى مع خطوط التجارة الغربية للعالم الرومانى ، واتجه نحو الشمال الشرقى خاصة فى العصور الوسطى تحت ضغط الحروب الصليبية التى جعلت اليهود يحرصون على تفادي الالتقاء بالجيوش المحاربة فى طريقها نحو الشرق . مما أدى إلى استيطان اليهود استيطاناً واسعاً فى مملكة بولندا القديمة . وحين تقسمت روسيا وبروسيا والنمسا بولندا فى نهاية القرن الثامن عشر . كان الجزء الأكبر منها من نصيب روسيا ، وتبع ذلك أن انتقل الجزء الأكبر كذلك من السكان اليهود فيها إلى سيطرة الروس. والآخر سار عبر البحر الأسود خلال القرم وفى المناطق التى تكون الآن جنوب غربى روسيا ، وقد كان التوسع الروسى سبباً فى ضم أقاليم آهلة باليهود ، مثل القرم . وبسارابيا . ودوقية وارسو. وهكذا لم يحل حرص روسيا المقدسة على أن تمنع تسرب اليهود إلى بلادها فى اتجاههم من الغرب إلى الشرق دون أن تجد نفسها فجأة من الدول التى تشتمل على نسبة كبيرة من يهود أوربا .

ومن ثم كان من الطبيعى أن يكون تفاعل اليهود مع الروس فى جسامته وحدته متلائماً مع ضخامة أعدادهم وخصائص فعالهم . فحاولت روسيا أن تحدد إقامتهم بأن تخصص لهم أقاليم لا يبرحونها إلى سواها دون إذن من

السلطات العامة . وقد احتوت تلك الأقاليم على أكثر من نصف اليهود فى العالم . غير أنه كان من المصرح لطوائف خاصة منهم أن يقيموا حيث يشاءون خارجها وأن يزوروا الأسواق ويدرسوا فى الجامعات وصادف أن كان أغلب اليهود الذين انتقلوا إلى حكم روسيا من فقراء اليهود الذين كانوا يعيشون فى ظلام العصور الوسطى دون ثقافة أو إصلاح . إلاّ أن الفقير اليهودى لم يمنعه فقره من استغلال الفلاح الروسى الفقير . لأن نسبة كبيرة من اليهود كانت تشتغل بإعداد المشروبات الروحية وبيعها بل إن تجارة الخمور أصبحت احتكاراً وقفه رجال الإقطاع على اليهود . ولذلك عاش الأهالى فى دين مستمر لأصحاب الحانات ولم تقف الشكوى منهم عند حد الاستغلال الاقتصادى الضار وإنما تعدتها إلى جوانب الالتزام السياسى الذى يستشعره المواطن نحو وطنه فى السلم والحرب . إذ ضاق اليهود بتجنيدهم طبقاً لقوانين نقولا الأول التى نظمت الخدمة العسكرية فى سنة ١٨٢٧ ورأى شبابهم وشيبهم أن ولاءهم قاصر على اليهود وأنه لا يتجاوزها إلى الدولة . ولذلك كان أظهر نشاطهم فى روسيا ذلك النشاط الثورى الذى شاركوا فيه مشاركة جوهرية لقلب نظام الحكم منذ سنة ١٨٨٠ حتى قيام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ .

وكان رد الفعل الروسى متجاوباً مع نشاطهم فى هذا المضمار ، فلقد أشيع عند اغتيال الإسكندر الثانى فى سنة ١٨٨١ أن لليهود يداً فى ذلك ، ولذلك قام الفلاحون وأهل المدن بهجوم كان القصد منه « تدمير » اليهود للأخذ بالثأر لمليكهم المصلح فى ربيع سنة ١٨٨١ ، وتكرر الاعتداء فى

صيف العام نفسه وفى ربيع العام الذى تلاه، ولقد أصدرت الحكومة بعض « القواعد المؤقتة » فى مايو سنة ١٨٨٢ لتنظيم إقامة اليهود إزاء استفزازهم للشعب وهجوم الشعب عليهم من حين لآخر . وقضت هذه القواعد بعدم السماح لليهود بإقامة مستوطنات « جديدة » فى المناطق الريفية ، أو بشراء أملاك أو سلع خارج المدن . كما أنها لم تسمح لهم بالعمل فى أيام الآحاد والأعياد المسيحية وإلى جانب هذه القواعد التى أصدرتها الحكومة لحفظ الأمن فى البلاد فتحت حدودها الغربية لهجرة اليهود إلى أوربا وأمريكا .

ولكن اليهود ازدادوا سخطاً بالقواعد التى أطلق عليها « قواعد مايو » وأصابهم الذعر من المذابح المتكررة التى تلاحقت حتى بلغت أقصاها فى حوادث سنة ١٩٠٥ وقابلوا ذلك بالهجرة العلنية إلى أوربا وأمريكا وبالحركات الثورية السرية فى روسيا ويهمنا أن نتتبع حركتهم الظاهرة والباطنة لأن آثارها امتدت إلى قلب البلاد العربية لتنفث فيها سمومها بعد أن حاول المغرب من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال أن يسد بابه دونها وأن يفتح أمامها باب الشرق العربى . ومفتاح ذلك موقف لدول الغربية الأوربية والأمريكية من المشكلة اليهودية . إذ أن سياسة « الباب المفتوح » أمام المهاجرين الأجانب سادت القرن التاسع عشر نتيجة توسع الغرب فى الإنتاج الصناعى وما نتج عن ذلك من تحرر فى السياسة وتيسير فى العمل للمهاجرين بل والترحيب بالأيدي العاملة فى كثير من الأحيان . ولكن ما أن أعلنت الحرب العظمى الأولى فى سنة ١٩١٤ حتى كان الغرب قد وصل إلى سياسة إغلاق الباب فى وجه المهاجرين خاصة بعد أن جرب اليهود

الذين تدفقوا إليه من روسيا بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٩١٤ والذين أثبتوا أنهم من المقيمين الضارين بالاقتصاد القومى والمواطنة السياسية والجوار الاجتماعى فلقد استقبلت الولايات المتحدة فى سنة ١٨٨١ أكثر من ثمانية آلاف مهاجر من يهود روسيا . وتضاعف ذلك العدد فى سنة ١٨٨٢ وبقى على هذا المستوى حتى وصل سنوياً إلى متوسط يبلغ الثلاثين ألفاً سنوياً بعد سنة ١٨٨٧ ، ثم بلغ فى سنة ١٩٠٥ رقماً قياسياً وهو ١٢٥٢٤٣ ، كما أخذت إنجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا نصيبها من أولئك المهاجرين . وهكذا ، فى عشرين عاماً ارتفع السكان اليهود فى الولايات المتحدة من أقل من ربع مليون إلى أكثر من مليون ، وفى إنجلترا من أقل من مائة ألف إلى ما يقرب من ربع المليون ، على حين أن فرنسا وهولندا وألمانيا استقبلت كل منهما بين العشرين والخمسة والعشرين ألفا من هؤلاء اللاجئين ، وإذ هاجر يهود روسيا إلى هذه البلاد الغربية لم ينسوا أن يصحبوا معهم ثقافتهم وطرق حياتهم الخاصة مما أثار شكوى الدول الأوروبية وأعلانها لرأيها عن تجربتها المؤلمة معهم ، فهم لم يتخلوا عن نظرتهم المعادية للمجتمع المحيط بهم ولم يتخلوا عما تنطوى عليه نفوسهم من قسوة وضغن . وظهر ذلك بطريقة عملية فى مزاولتهم لأعمالهم العادية أثناء السلم وفى محاولة الهرب من الخدمة العسكرية عنصر إعلان الحرب فى سنة ١٩١٤ . إذ لم يراعوا المناقشة الحرة الكريمة فى العمل ، فحاول العمال منهم أن يعملوا بأجور منخفضة انخفاضاً يضر مصالح العمال من غير اليهود فى أوروبا الغربية . ويحول دون حصولهم على نسب الأجر التى تسمح لهم بالاحتفاظ بمستوى معقول فى الحياة العادية . كما حاول المشتغلون منهم بالتجارة أن ينافسوا غيرهم من التجار بعرض سلع

رخيصة والاكتفاء فى أغلب الأوقات بنصف الأرباح المعتادة ، معتمدين فى ذلك على ما تعودوا فى مواطنهم الأصلية من انحراف التعامل والتواء فى الوصول إلى مآربهم المادية . وقد جاءت الحرب العظمى الأولى فكشفت عن هذا الانحراف والالتواء ، لأن أوقات الأزمات أقدر على إظهار جوهر الخلق والسلوك الاجتماعى من أوقات الهدوء العادى ، فتجاوبت الشكوى فى أوروبا وأمريكا من محاولات اليهود الطارئين المعقدة فى إخفاء أنفسهم وأشخاصهم عن نظر إدارات التجنيد الإجبارى وذلك بعدم استلام شهادات الجنسية الوطنية فى الدول التى استوطنوها بعد الهجرة من روسيا هذا إلى تفننهم فى تفادى الجندية وتشويه أعضائهم والهرب حتى بعد التجنيد مما جعل الحلفاء والدول الوسطى على السواء ترى فى اليهودى مثالا لعدم الولاء وإنكار الجميل ، والبعد عن فهم معنى المواطنة وتقدير مسئولياتها وحمل أعبائها كسائر المواطنين . فاليهودى المهاجر من روسيا أثبت أنه المشارك فى السراء والهارب فى الضراء . ولا عجب إذن بعد هذه التجربة أن تغلق دول أوربا وأمريكا دون أمثاله الأبواب ، فتحدد الهجرة اليهودية إليها وتلتمس فى إعانة اليهودى أرضاً غير أرضها ودياراً غير ديارها ، ومن ثم كانت فلسطين أرض الميعاد لا لليهود وحدهم وإنما لأنصار اليهود من الغربيين الذين أرغموا على عونهم وإنما على حساب غير حسابهم الخاص .

ولكن اليهود الروسيين ما كانوا ليكتفوا بحل مشكلتهم عن طريق الهجرة إلى أوربا وأمريكا وعن طريق بناء دولة لهم فى فلسطين وحسب ، وإنما حاولوا بعد أن عجزوا فى روسيا عن أن يجدوا لهم منفذاً فوق الأرض

أن يلتمسوه تحت الأرض فهم لم يذعنوا لما فرض عليهم من قيود الإقامة والعمل ، بل حاولوا فى الخفاء أن يتآمروا مع الساخطين من الروس على قلب ذلك النظام القيصرى الذي لم يجار المدنية الغربية مجاراة تكفى لأن يمسك اليهود فيها بزمام المجتمع كما حاولوا أن يفعلوا فى الدول الغربية . ولذا لم يقر لهم قرار منذ اغتيال الإسكندر الثانى فى سنة ١٨٨١ حتى انتصرت الثورة الشيوعية واحتلوا فى قيادتها أول الأمر مكان الصدارة . فعلى حين أنهم رأوا أن امتيازهم فى دول الغرب إنما يأتى من طريق التحالف مع الرأسمالية تبينوا أن نيل الامتياز المماثل فى روسيا مرتبط بسيادة الشيوعية غير حافلين بما بين المذهبين من تعارض . طالما يؤدى الطريقان إلى سيادة « شعب الله المختار » . ولا ريب فى أن الثورة الشيوعية فى روسيا حركة حتمية استلزمتها ضرورات التطور التاريخى لشعب أغفل حكامه إرضاء مطالبه الصارخة زمناً طويلاً ، إلا أن اليهود مع ذلك قد ساهموا مساهمة فعالة فى الإعداد لها وفى تنفيذها . فجميع طبقات اليهود من رأسماليين ومفكرين وعمال قاموا بأدوار ملائمة فى نشر الدعوة الماركسية وفى تأييد الأحزاب الثورية . ولقد أدت نسبة اليهود الكبيرة بين رجال الإدارة فى حكومة الثورة البلشفية سنة ١٩١٨ . وبين صغار الموظفين والكتبة كذلك ، إلى أن يربط الملاحظون الأجانب ربطاً وثيقاً بين اليهود وبين الشيوعية . ومن الطريف أن اليهود فى دول الكتلة الشرقية يفاخرون بما ساهموا به فى تحقيق الشيوعية ، إلا أنهم فى الغرب ينكرون صلتهم بها ويبررون انضواء اليهود تحت علم البلاشفة بأنه أمر لم يكن هناك مفر منه إنقاذاً لرءوسهم التى كانت تتهددها سيوف قواد الجيوش البيضاء المعادية لليهود لكونهم يهود ،

كما كانت تهددها فى الوقت ذاته ثورة البلاشفة كأعداء للشعب إن هم ازوروا عنها ، فاعتناقهم الشيوعية قد جاء كما يدعى المحامون عنهم من كتابهم فى الغرب نتيجة الضرورة لا نتيجة الاعتقاد . إذ أنهم ديموقراطيون لحماً ودماً ، وأنهم يذرفون الدمع لفشل حكومة « كيرنسكى » فى إقرار دعائم الحكم الديموقراطى فى روسيا سنة ١٩١٧ ، والذى عمل اليهود ما وسعهم الجهد الفكرى والعملى لسيادته فى الشرق والغرب .

وفى الواقع أن هنالك اتجاهين يعملان فى المده الأخيرة على التهوين من شأن الدور الذى لعبه اليهود فى الثورة الشيوعية الروسية . أما الاتجاه الأول فيروج له اليهود الذين يعيشون فى دول الكتلة الغربية الرأسمالية خاصة فى إنجلترا والولايات المتحدة التى أصابها الذعر من جراء انتصار النظام الشيوعى فى روسيا ، وخطر دعوته المذهبية العالمية ، إذ أخذت طائفة من كتاب اليهود تتزعم مناصرة المبادئ الديموقراطية حسب المفهوم الغربى من حيث تطبيقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتنادى حتى فى الجامعات الغربية بالمذهب الفردى المتطرف الذي عدل عن الأخذ به أخذاً متزمتاً حتى مفكرو الإنجليز والأمركيين المحافظون ، ولعلهم فى هذا المسلك يحاولون أن يكونوا « ملكيين أكثر من الملك » « وبابويين أكثر من البابا » وفرديين أكثر من الأمريكيين فى القرن العشرين ، وهم بذلك يدرأون عن أنفسهم الشبهات اليسارية وينزهون أبناء دينهم عن نصرة المبادئ الشيوعية فى المعاقل الغربية . وهذا الاتجاه المتطرف فى إنكار الانتساب إلى الشيوعية سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل هو وليد الحصافة اليهودية التقليدية

التي تدرك أسرار التطور التاريخي للشعوب ، فتعطى كل شعب البضاعة الرائجة فى سوقه الخاص . وأما الاتجاه الثانى فيصدر عن كتاب الروس أنفسهم خاصة بعد النزاع الذي حدث بين ستالين وتروتسكى أول الأمر وبين ستالين وزينوفييف بعد ذلك وانتهائه بتغلب ستالين على الزعيمين اليهوديين اللذين كانا يطمحان بحكم دورهما فى الثورة البلشفية إلى تولى منصب الخلافة بعد موت لينين . فمنذ أن أخذ ستالين مقاليد السلطة الحقيقية فى يده ، وحول منصب السكرتير العامللحزبالشيوعى من منصب إدارى إلى مقر السلطة والنفوذ الفعلى . ساد الاتجاه إلى إغفال المساهمة اليهودية فى الثورة البلشفية . بل إن كثيراً من الوثائق المتصلة بنشاط الزعماء اليهود فى الحكم وقبل الحكم قد أصابه التعديل والتبديل إن لم يكن قد أصابه الإفناء والإعدام . وهذا الإجراء الذى لجأ إليه الروس فى دعايتهم وتسجيل تاريخهم الثورى أمر عرفه التاريخ القديم حين عمد بعض ملوك مصر الفرعونية إلى طمس معالم السابقين ثم كما أنه أمر أصبح الآن شائعاً فى القرن العشرين لا سيما بعد أن تقدمت فنون الدعاية الشعبية ومناهج مخاطبة الجماهير الوطنية وبعد أن طبق الحكام على شئون السياسة والاجتماع فى جميع أقطار الأرض نظرية «أينشتين» فى أن الحقيقة نسبية وليست مطلقة . ولكن مهما اتفقت مصلحة اليهود فى الغرب من ناحية ومصلحة الروس الوطنيين من ناحية أخرى على حجب الدور الجوهرى الذى قام به اليهود فى قلب نظام الحكم القيصرى ، وإحلال النظام الشيوعى محله ، فإن ذلك الدور من الوضوح حتى لا يستطيع حاجب أن يحجبه مهما ابتكر فى

سبله ووسائله ، ويكفى فى ذلك أن كان ترونسكى فوق مكانته الفكرية فى توجيه الحزب الشيوعى . القائد الرسمى الأعلى للقوات المسلحة الحمراء التى عملت على تثبيت النظام البلشفى فى الفترة العصيبة الأولى التى شهدت أعداء الثورة البلشفية ينقضون عليها من الدخل والخارج انقضاض الصواعق من كل صوب . كما كان « زينوفييف » من بين القادة الأخصاء للحزب المشيوعي وقد اشترك فى زعامته بعد وفاة لنين الذى سبق أن صاحبه فى النفى إلى فنلندا حين حاولت حكومة كيرنسكى القبض فى سنة١٩١٧على زعماء الحزب البلشفى بعد أن حبطت محاولتهم فى الانتقاض قبل ثورة أكتوبر .

ولقد كان الدور الذى قام به يهود روسيا فى الثورة على الحكم القيصرى أمراً طبيعياً دفعهم إليه محاولة القياصرة دائماً وضعهم فى موضعهم العادى كغيرهم من المواطنين وعدم إعطائهم من الامتيازات الاجتماعية ما يتناسب مع مركزهم المالى المتفوق فى روسيا . ولما كانت الثورة وإقامة دولة جديدة مكان الدولة القديمة فى حاجة دائماً إلى مذهب فكرى أو دعوة تسبقها كما أشار إلى ذلك ابن خلدون ، فقد سارع اليهود الروس إلى المناداة بالشيوعية الماركسية ومناصرة الثائرين من الروس الذين أخذوا بها وعلى رأسهم لنين ، فكانوا سدنة الدين الثوري الجديد ومبشريه بل وحراسه وحملة لوائه . ولكن ميزة اليهود فى هذه الناحية كانت تنطوي فى الوقت ذاته على نقيصة . وذلك لأن الشعب الروسى ما كان لينسى بين عشية وضحاها رواسب الخصومة التقليدية بين المسيحى واليهودى والتى عبر عنها الطرفان فى آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين تعبيراً انتقامياً دامياً . وقد حاول قادة الجيوش

الروسية البيضاء فى محاربتهم للثورة البلشفية إثارة عاطفة البغضاء التقليدية بين الفريقين وذلك باستغلال اسم عائلة تروتسكى اليهودية فى الدعاية المضادة محاولين تصوير الثورة تصويراً طائفياً لا قومياً ولم يقتصر الأمر على هذه الصفة الدينية عند اليهود ، فإن صفاتهم الخلقية والعقلية والقبلية البدائية كانت أيضاً من العوامل التى تحد من مزايا هم التى وجهوها إلى خدمة الثورة ، والتى تباعد بينهم وبين فهم الشعب الروسى وتراثه التاريخى . وهذا ما حدث فعلا . فإن تروتسكى وزينوفييف وقادة اليهود فى الثورة أصروا على التمسك بتطبيق نظرية ماركس فى الشيوعية تطبيقاً منطقياً دون تقدير للظروف الاجتماعية،ولذلك دعا تروتسكى فى السياسة الداخلية إلى إبعاد الفلاحين من حظيرة الطبقة العمالية مقتفياً فى ذلك تعريف ماركس للبروليتاريا وقصره إياها على عمال الصناعة ، وهو فى ذلك لم يستطع بحكم بعده عن الأرض مثل غيره من أبناء دينه عن أن يدرك أن الفلاح الروسى فلاح ثائر لاشتراكه مع سواه من أبناء جنسه فى التعرض لاضطهاد أصحاب الإقطاع . كما أن زينوفييف خاطب المهندسين فى مؤتمر لهم عقدوه فى لننجراد سنة ١٩٢٥ بقوله الحاسم « إننا لن نعطيكم أبداً حقوقاً سياسية » ولم يكن قادة اليهود فى الواقع بقادرين على تكييف الفلسفة الشيوعية الماركسية تكييفاً يتفق والمجتمع الروسى . لعجزهم عن فهمه نتيجة حتمية لقصورهم فى العطف عليه والتعاطف معه، وكذلك نتيجة استعلائهم الذهنى الذى طبع سلوكهم العام والخاص بطابع الوقاحة العقلية المجردة . وهذا ما استشعره ستالين نفسه فى تجربته معهم ، فكانت مظاهر هذه

السلوك الفكرى والخلق الذى اختص به قادة اليهود فى الثورة من عوامل فشلهم فى أن ينالوا الخلافة بعد لنين كما كانت من أسباب انتصار ستالين عليهم ونجاحه المنتظر فى أن يمثل بين الشعب الروسى قائد الثورة المصطفى للعهد الجديد .

وهكذا ظهرت مزايا اليهود ونقائصهم التقليدية أثناء اشتعال الثورة الروسية وأثناء استمرارها ، فمزاياهم التى تقوم على الهدم وتشويه الحقائق وبلبلة الأفكار وإثارة النفوس ونشر العداوة والبغضاء وإشاعة الفرقة بين الناس قد كان لها الأثر النافذ فى البداية ، ولكن سرعان ما بان للناس قصورهم فى السياسة القومية التى تعتمد على تدعيم الألفة بين المواطنين وتوحيد طوائفهم وجماعاتهم وتقدير عاداتهم وطرائق حياتهم ، فاليهودى الساخط قادر على أن يذيب الروابط بين أبناء الوطن الواحد ، ولكن سخطه يعجزه عن أن يحفظها أو يقيم بينهم ما هو خير منها . ومن الغريب أن الروس أنفسهم قد شعروا بالخطر اليهودى على نظامهم القديم أثناء ذلك الصراع الذى احتدم بينهم وامتد منذ العشرين عاماً الأخيرة فى القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين . وكان إعلان هذا الشعور فى مجموعة البيانات التى نشرها الكاتب الروسى سرجى نيلوس تحت عنوان « بروتوكولات شيوخ صهيون » فى سنة ١٩٠٥ ، والتى ذهب إلى أنها وثيقة يهودية حقيقية تشتمل على خطة اليهود فى أن يسيطروا على العالم باتخاذ الوسائل الدولية المختلفة لتحقيق ذلك. وتقوم هذه الوسائل أول ما تقوم على الهدم والتخريب وإضعاف العقول والأجسام ، واصطناع السبل المناسبة

لكل بلد من البلدان ، ولقد أشير فى هذه الطبعة إلى أن الماسون شركاء اليهود فى نسج مؤامرة عالمية ضد المسيحية على وجه العموم وروسيا على وجه الخصوص .

بروتوكولات شيوخ صهيون :

وهذه البروتوكولات ليست قرارات محددة صادرة عن مجمع معين لشيوخ صهيون وإنما هى أشبه بمحاضرات يلقيها شيخ من شيوخ صهيون فى أناس يكشف لهم بصراحة تامة عن المؤامرة اليهودية التى يدبرها شيوخهم. وما أن صدرت هذه الطبعة فى روسيا حتى أحدثت أثراً واسعاً فى إثارة الوعى الروسى بالمشكلة اليهودية وخطرها فى قلب النظم وتغيير الحياة وانتقل ذعر المسيحية فى روسيا قبل الحرب من تهديد اليهود لها إلى أرجاء أوربا الوسطى والغربية بعد الحرب وبعد أن تمكنت الثورة الشيوعية من تقويض القيصرية وما كان لليهود فيها من دور القيادة والدعوة والتنفيذ . فى الحرب العالمية الأولى وبعدها احتل اليهود فى العالم بأجمعه مركزاً بارزاً ، ورأى الناس كيف يصدر الإنجليز بالاتفاق مع الأمريكيين تصريح بالفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين سنة ١٩١٧ كما رأوا يد اليهود واضحة فى الحركات الشيوعية فى ألمانيا والمجر . ولقد كان المستشار الخاص للرئيس وودرو ولسن يهودياً أمريكياً . ولم يقتصر بروز اليهود بعد الحرب على دورهم فى اصطناع الشيوعية فى شرق أوربا ووسطها واصطناع الوطنية فى غرب أوروبا وأمريكا . بل إن وفود اليهود العاديين من إنجلترا وفرنسا

وأمريكا قد امتلأت بهم « فرساى » ليوجهوا معاهدات الصلح وجهة تخدم اليهودية وسيطرتها ، وايتخذوا من نفوذهم المادى فى العالم الحديث وسيلة لاستخدام سيف المسيحية فى إعلاء شأنهم وسلطانهم بعد أن كان ذلك السيف فى يد المسيحى أثناء العصور الوسطى والحديثة أداة لإهراق دم عدوه وعدو دينه التقليدى من اليهود الأجانب المقيمين فى بلاده ، وظهر للعالم المسيحى فجأة أن اليهود الذين طأطأوا رؤوسهم خلال العصور إنما فعلوا ذلك تمهيداً لغزوهم غزواً فعالا وتسخيره لقضاء مآربهم . ولقد أعلنت صحيفة « المورننج بوست الإنجليزية » هذا الذعر المسيحى فى مقال بعددها الصادر فى ٧ أغسطس سنة ١٩١٧ فقالت : « إن اليهود أمة عظيمة ، وبالتأكيد هم أمة ، وإن السياسة القادرة لحكامهم المستورين قد حفظتهم أمة خلال أربعين قرناً من تاريخ العالم . وفى أيديهم تستقر المعرفة التقليدية للأرض جميعها ، ولا توجد أسرار للدولة فى أية أمة إلا ويتقاسمها أيضاً حكام اليهود المستورون » . ثم أخذ الإحساس بخطر اليهودية العالمية على المسيحية ينتشر فى دول أوربا متجاوبة أصداؤه بين إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبولندا حتى عبر المحيط الأطلسى إلى أمريكا ، فى نوفمبر ١٩١٩ تم نشر ترجمة ألمانية كاملة للبروتوكولات وقدمت إلى أمراء أوربا فى لهجة التوسل أن يدركوا ذلك الخطر فى أوانه . وظهرت بعد ذلك بشهرين ترجمة إنجليزية كاملة تشتمل على مقدمة توضح الأثر الشرير لليهود فى تاريخ أوربا وتبعت ذلك ترجمات للبروتوكولات باللغة الفرنسية والبولندية والإيطالية . وعلقت الصحافة الأوروبية والأمريكية تعليقات مسهبة على هذا الكشف فى السياسة الدولية عن النزاع الخفى بين اليهودية والمسيحية

وعادت جريدة المورننج بوست إلى معالجة الموضوع فى فبراير سنة ١٩٢٠ وذهبت إلى أنه بالرغم من أن صحة وثائق البروتوكولات الصهيونية لم تثبت إلا أنها تتفق فى جوهرها مع الحقائق والواقع . وهذا ما دفعها فى النهاية إلى أن تخصص فى يوليه من العام نفسه سبعة عشر مقالا لذلك الموضوع نشرتها بعد ذلك مع مقدمة مثيرة لرئيس التحرير نفسه فى شكل كتاب تحت عنوان « سبب القلق فى العالم » .

ومن يقرأ البروتوكولات ويقارن بينها وبين مجرى التاريخ المعاصر يتبين أن حكم جريدة المورننج بوست بأن جوهر تلك البروتوكولات مستمد من نفوذ اليهود الحقيقى فى سياسة أوروبا حكم صحيح . فموضوعها يتلخص فى أن يهود العالم قد عقدوا العزم منذ القديم على أن يقيموا سلطانهم فوق كل سلطان فهم ليسوا أقليات مشتتة فى الأوطان المختلفة فى مشارق الأرض ومغاربها . وإنما هم وحدة متماسكة رغم التباعد الجغرافى لما بين طوائفها من اتصال قائم على التنظيم والتدبير المحكم . بل أن تشتتهم هو مصدر القوة الذى يضمن لهم مؤازرة الحكومات المختلفة فى كل حركة من حركاتهم . وهدفهم الأساسى أن تحكم الأمة اليهودية أمم العالم حكماً ظاهراً ومحجوباً بيد حديدية ذكية . وخطتهم فى تحقيق ذلك الهدف تقوم على ما بلغه يهود العالم من قوة المادة والعلم فهم من غير شك قد أصبحوا وهم الخبراء بالذهب طوال العصور . أصحاب رؤوس الأموال التى تعد دعامة المدنية الراهنة . كما أن الحركة التحريرية التى صاحبت التطور التاريخى الحديث قد فتحت أمامهم كنوز العلم فأمسكوا بمفاتيح خزائنه مثلما

أمسكوا من قبل بمفاتيح خزائن المال . وقد استخدموا تلك المفاتيح فى فتح ما استغلق من أسرار الطبيعة الإنسانية والمجتمع الإنسانى وتاريخ الإنسان فى حركة تطوره الأخيرة . وبنوا أساليبهم على ما بلغوا من نتائج لدراساتهم فى الاجتماع والاقتصاد والأخلاق والقانون والنفس البشرية . فالسياسة عند اليهودية العالمية كما تؤكد البروتوكولات الصهيونية ما هى إلا حكم الممتازين من صفوة اليهود لغيرهم من سواد المسيحيين وأصحاب الأديان الأخرى وفق الناموس اليهودى فى توجيه التاريخ وجهة يرضون عنها ويختارونها للبشر .

وأيسر السبل لتحقيق سيادة اليهود فى الأرض إنما تأتى من تركيز مقاليد النشاط الإنسانى فى أيديهم سواء من جوانبه المادية أو المعنوية ، والاحتكار هو الشكل المختار لتنفيذ ذلك التركيز . وتفيض البروتوكولات فى وصف تفاصيل هذا المنهج . فعن طريق الإلمام بأسرار الاقتصاد وعلمه والسيطرة على مصادره وقواه يحتكر اليهود الصناعة والتجارة ويجمعون مال الأرض فى خزائنهم ومصارفهم وبذلك يتصرفون فى مصائر العالم فى السلم والحرب . والسلم الذى تصوره البروتوكولات لا يختلف عن الحرب ، لأن اليهود سيحرصون على أن يسود الاضطراب بين الحاكم والمحكوم وبين الدول المختلفة ، وفى هذا الصراع الدائم سيحتاج كل فريق إلى معونة رأس المال اليهودى ليضمن الراحة المؤقتة والاستقرار المطلوب . كما أن حرص الدول المتحاربة على كسب الحرب ، سيجعلها أحوج ما تكون إلى الإمدادات المالية من خزائن اليهود المحتكرة لثروة العالم . وعند ما يمد السائل يده إلى

المعونة ، يفرض اليهود شروطهم التى تدأب على التمكين للدولة الصهيونية العالمية.

والاحتكار عند اليهود متكامل الحلقات ، فهم وإن كانوا يسعون إلى احتكار كل ما يسيطر على معدة الإنسان فهم أيضاً يهدفون إلى احتكار كل ما يسيطر على عقله وروحه وقلبه وعواطفه وشهواته . ولذلك كان احتكار الصحافة وشركات الأنباء والنشر الأدبى من الخطوات الأساسية فى ذلك السبيل، فعن طريق هذه الوسائل . ينشر اليهود ما يناسب صالحهم ويمنعون من النشر كل ما يعارض ذلك الصالح . فكما يحددون للمعدة غذاءها ، يحددون كذلك الأغذية المعنوية . وهم يحرصون على أن تكون تلك الأغذية مسمومة بسموم الصهيونية : إذ قصدها الأول أن تضعف المجتمعات غير اليهودية وتشيع الفساد بينها بما تهدم من كل ما يحفظ على تلك المجتمعات صفة التماسك والبناء السليم . فغير اليهود فى نظرهم قطعان من الأنعام. ويجب أن يخاطبوا ويعاملوا على هذا الأساس . ومن ثم كانت أهمية العواطف والانفعالات . إذ ينبغى ألا يعمل كتاب اليهود على ضبطها وتنظيمها . وإنما همهم الأول أن يلهبوها وأن يوجهوا لهيبها نحو السلطة فى كل بلد ليمحوها ومحو ما تعارف عليه الناس من قواعد للحياة ليقضى عليها . فتعم الفوضى ويسود السخط وتتحلل الروابط . ومن ثم يتقدم اليهود فى صور الأطباء الذين فى أيديهم وحدهم شفاء المرضى وعون المحتاجين وإعادة النظام وتصف البروتوكولات الصهيونية هذا الدور الذى يقوم به احتكار دور النشر والأنباء فى السيطرة على أنباء العالم وأدبه وفى توجيه الكتابة إلى إذكاء العواطف ، وتأجيجها وإضعاف التفكير المتزن الهادئ فى الفقرتين الآتيتين المأخوذتين من البروتوكول الثانى عشر والبروتوكول الخاص :

« لن يصل إعلان واحد للجمهور دون رقابتنا. وحتى الآن فقد بلغنا هذا بالقدر الذى تستقبل به جميع الأنباء بواسطة وكالات قليلة لها ، وتتركز فى مكاتبها من جميع أجزاء العالم ، وستكون هذه الوكالات ملكاً تاماً لنا. وستنشر فقط ما نمليه عليها » .

« أنه لأهم فى الوقت الحاضر أن نجرد الشعوب من السلاح عن أن نقودها إلى الحرب . وأهم أن نستخدم لصالحنا العواطف التى تفجرت فى لهب عن أن نطفىء نارها ، وأهم أن ندرك أفكار غيرنا . وأن نفسرها عن أن نستأصلها . فالغرض الأساسى لإدارتنا هو هذا : أن نضعف عقل الجمهور بالنقد ، وأن نبعده عن التأملات الجادة التى يقصد بها إثارة المقاومة ، وأن نوجه قوى العقل نحو معركة كاذبة من البلاغة الفارغة . . . فلأجل أن نضع الرأى العام فى أيدينا يجب أن نجعله فى حالة حيرة ، وذلك بالتعبير من جميع الجهات عن آراء كثيرة تبلغ من التناقض وتستمر مدة تبلغ من الطول مبلغاً يكفى لأن يجعل غير اليهود يفقدون رءووسهم فى التيه » .

وفى الواقع أن هذا الأسلوب فى مخاطبة أفكار الناس وعواطفهم ، أسلوب لا يمكن مقاومته . فالطبيعة الإنسانية عند جماهير الناس تنقاد مع من يساير اتجاهها ويغذيه لا من يعارضه ويلويه . وليس هذا الكشف قاصراً على ما جاءت به البروتوكولات فقد سبق أن أشار إليه أفلاطون وأرسطو وأبانوا نفعه وخطره فى الوقت نفسه. ولكن أهمية ما قررته البروتوكولات فى هذه الناحية تنحصر فى إقامة سياسة الجماهير على المستحدث فى دراسة النفس والمجتمع الإنسانى وبمعنى آخر هو قيام السياسة على خطة

مدبرة مرسومة يسندها العلم الحديث بكشوفه فى الميادين المختلفة . فمخاطبة العواطف عند الجماهير دون عقولهم أفعل فى الوقت الحاضر منها فى أى وقت مضى . وذلك لأن السيادة انتقلت إلى الشعوب بعد أن كانت فى يد الملوك والقلة الارستقراطية ، كما تشير إلى ذلك البروتوكولات ومن ثم كان على اليهود أن يتجهوا إلى فهم أفكار العامة وترجمتها لهم فى ثوب نظريات ومذاهب سياسية واقتصادية واجتماعية . والظهور أمامهم بمظهر المعين لهم على بلوغ العدل والإنصاف ولا يهم فى تلك النظريات والمذاهب أن تكون متسقة فيما بينها بقدر ما تتفق وأحدث التيارات السائدة بين طبقات الشعب الغالبة ، وبقدر ما تخاطب كذلك الطبقات التى تشير دلائل التطور الاجتماعى إلى سيادتها فى الغد . ولذلك وجدت الدعوة إلى الاشتراكية تأييداً متطرفاً من اليهود سواء المفكرون منهم والمواطنون العاديون فى دول العالم المختلفة ، لأن ألوانها المتباينة هى الألوان المذهبية التى تعد جماهير الشعوب بإرضاء حاجاتهم فى الأزمنة المعاصرة والتى تتحدى نظم الحكم الارستقراطية والبورجوازية التقليدية .

ولكن البروتوكولات وإن كانت تقدر أثر مجاراة شعور الجماهير وتدعو إلى السيطرة عليه عن طريق وسائل الإقناع من مذاهب إنسانية واجتماعية مثل الماسونية والاشتراكية والحرية والعدالة والمساواة الاجتماعية وتستخدم فى ذلك الصحافة والجامعات لتلقين تلك المبادىء العصرية ، إلا أنها لا تنسى كذلك أن تنصح الحاكم الصهيونى بأن يتذرع بالقوة والعنف والإرهاب كوسائل فعالة لتمكين السلطان على الجماهير من غير اليهود ،

لأن الإنسان غير اليهودى فى رأى حكماء صهيون حيوان منطو على الخصال الدنيا من الشهوات ويجب أن يتعلم الطاعة بالإرهاب الذى يولد الخوف والفزع وينشرهما بين الناس فيطأطئون الرؤوس لحكم صهيون عنوة وكرهاً ، وهكذا تؤكد البروتوكولات الصفة التى ارتبطت باسم بنى إسرائيل من أنهم الميالون لإخضاع غيرهم عن طريق القسر سواء بسلطة المال فى الاقتصاد أو بسلطة العنف فى السياسة وما المذهبيات الاجتماعية التى يدعون الدفاع عنها لخدمة البشرية إلا ممهدات لمباشرة سلطانهم الشامل بمعانيه المختلفة بين الشعوب حتى يكسبوا تأييد حكوماتها لهم . فإن اضطهدتهم إحداها نتيجة إساءتهم إليها ناصرتهم غيرها ممن احكموا القبض على مقاليد السلطة فيها .

تجربة النازية :

ولقد جاءت بروتوكولات حكماء صهيون بما يشبه الوحى لدى ساسة الأوروبيين ومفكريهم . إذ فتحت أعينهم فجأة على هذه القوة الجديدة التى تتسرب دون وعى من غير اليهود فى الكيان الأوروبى وتنسج خيوط نفوذها نسجاً دولياً يشمل رقعة العالم بأسره ، وكان هتلر فى مقدمة الساسة الأوروبيين الذين عنوا بتحليل الخطر الصهيونى وتعمق أصوله وتطوره فى التاريخ القديم والحديث . وفى الواقع أن دراسة ما كتب هتلر عن الصهيونية العالمية قد أصبح أمراً جوهرياً بالنسبة لمن يعيش فى البلاد العربية بعد سنة ١٩٤٨ إذ كان الكثيرون منا قبل ذلك التاريخ غير واعين لرسالة الصهيونية

أو على الأقل واقعين تحت تأثير الدعاية الصهيونية التى من شأنها أن تعمى عامة الناس عن غاياتها الحقيقية وأن تصور اليهود الصهيونيين فى صورة الأبرياء المضطهدين الذين لا يبتغون سوى العيش السلمى المثمر فى أرض فلسطين . ومن ثم نعرض هنا لما سجله هتلر من نشاط الصهيونية العالمية وأساليبها خاصة فى ألمانيا ، لأن ذلك يكمل لنا الصورة التى حاولنا أن نرسمها لموقف اليهود فى أوروبا أثناء القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ولأن تجربة اليهود فى ألمانيا النازية كان لها تأثير مباشر علينا فى زحف الصهيونية على الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية . ومن يطلع على البروتوكولات ويطلع فى الوقت نفسه على كتاب هتلر « كفاحى » يتبين الأثر العميق الذى تركه ذلك الكتاب فى تشكيل فلسفةهتلر النازية وتقرير موقفها من اليهود والصهيونية ، فهتلر يتخذ مما فصلته البروتوكولات سنداً لما جربه الألمان وجربه العالم من السلوك الصهيونى الحديث إذ يقول :

« إن بروتوكولات حكماء صهيون التى يبغضها اليهود بغضاً لاحد له تبين إلى أى مدى يقوم الوجود الكامل لهذا الشعب (اليهود) على كذبة متصلة ، وأن صحيفة فرانكفورتر اليهودية تنوح وتصيح مرة كل أسبوع معلنة أن هذه البروتوكولات تقوم على التزييف ، وهذا خير دليل على أنها حقيقة . فما قد يقبله يهود كثيرون دون وعى يعرض هنا عن وعى وهذا ما يهم . ونحن لا نحفل مطلقاً بمعرفة أى ذهن يهودى نشأت عنه هذه البيانات المذاعة . فالشىء المهم هو أنها — بتأكيد يبعث الرعب حقاً فى النفوس — تكشف عن طبيعة الشعب اليهودى ونشاطه

وتفضح دخائل أعماله وكذلك مقاصده النهائية . ومع ذلك فإن الواقع هو خير نقد يوجه إلى هذه البروتوكولات إذ أى شخص يدرس التطور التاريخى للمائة سنة الأخيرة من وجهة نظر هذا الكتاب سيدرك فى التو مغزى صراخ الصحافة اليهودية . فما أن يصبح هذا الكتاب ملكاً شائعاً عند شعب ما ، حتى يتحطم التهديد اليهودي بافتضاح أمره » .

وقد أزعج هذا الاكتشاف المفكرين والكتاب من اليهود فأخذوا فى كتبهم وصحفهم ينكرون صحة نسب هذه البروتوكولات إليهم ويؤكدون أنها محرفة عن أصول غير يهودية ، كما أخذوا يستخدمون نفوذهم ونفوذ الحكومات المختلفة فى مقاومة نشرها وذيوعها بين الشعوب حتى لا تتيقظ الجماهير لخطرهم الزاحف على المجتمع الحديث فى ظل المدنية الراهنة .

ويرسم لنا هتلر فى كتابه « كفاحى » أركان التطبيق العملى للسياسة الصهيونية فى العالم وأساليب بلوغها الأهداف المقررة . وتكاد تكون الصورة التى يرسمها هتلر مطابقة للمبادئ الأساسية التى نادت بها البروتوكولات . ويبين ذلك فى الأفكار العامة والتفاصيل الخاصة . فهو يذكر لنا كيف ينتقل اليهودى من المرحلة التى ارتبط فيها اسمه بخدمة القصور والأمراء واستغلال جماهير الشعوب لصالحهم وصالحه إلى المرحلة التى يظهر فيها أمام الشعب بأنه خادمه الأمين العامل على تقدمه وحريته وتحقيق العدالة لأفراده والمحسن له والآخذ بيده . والناشر أجنحته لتحميه من مظالم الطبقة الوسطى التى لا تكترث بحاله وهو يصارع الحياة من أجل الاحتفاظ بالحياة . ويستدرك هتلر قوله فيؤكد أن اليهودى وهو يبدو أنه مع الشعب

لا يهجر الملوك والأمراء والطبقة الوسطى ، وإنما ينقسم اليهود إلى فريقين أحدهما يعلن الولاء للاستقراطية والرأسمالية والآخر يعلن الصداقة والقيادة للعمال وجماهير الشعب . وقد تحقق لليهود هذا الموقف من المجتمع الأوروبى عامة والألمانى خاصة . نتيجة التغيير الذى طرأ على النظام الاقتصادى مما جعل المجتمع ينقسم إلى قسمين : أصحاب عمل وعمال ، وينعى هتلر على أصحاب العمل من الألمان أنهم لم يحملوا المسئولية التقليدية تجاه العمال ولم يحترموا العمل الذى اشتهر أجدادهم باحترامه ، مما استغله اليهود بذكائهم الخارق للتفرقة بين عناصر المجتمع وطبقاته وإذكاء البغض والحقد بينها لتقويض الوحدة الوطنية واتخاذ الطبقات العاملة الخائفة قوة هجوم عاصفة لتدمير أسس الحياة القومية من سياسية واقتصادية وثقافية وأخلاقية ودينية وعنصرية .

ويقرر هتلر أن وسائل اليهود فى هدم المجتمعات الأوروبية وإتمام السيادة الصهيونية إنما هى الوسائل التى أرشدت إليها البروتوكولات ، فهى تتلخص فى منهجين : الإقناع ثم العنف . ويحمل اليهودى طابع المنهجين فهو يوماً الصديق الحميم الودود ويوماً آخر العدو الرهيب الدامى . وكل منهما يكمل الآخر . ويجنى ثمار أسلوبه وجهده . فى تؤدة وبطء يجعل اليهودى من نفسه ممثل العصر الجديد إذ يهدم شيئاً فشيئاً أسس الاقتصاد الذى قد يفيد الشعب حقاً ويحفظ عليه طابع الملكية الشخصية التى تربط بمسئوليتها بين المالك والعامل ويستولى هو على الإنتاج القومى عن طريق الأسهم المالية ويقيم بذلك البنيان الاقتصادى على البعد بين صاحب العمل

والعامل مما يؤدى بعد ذلك إلى الانقسام الطبقى السياسى . وفى النهاية ينمو النفوذ اليهودى على الشئون الاقتصادية بسرعة مخيفة عن طريق سوق الأوراق المالية فيصبح المالك أو على الأقل المسيطر على قوة العمل القومية » وليقوى مركزه السياسى يلجأ إلى وسائل الإقناع التى تفعل فعلها دون أن يتيقظ لذلك متيقظ إذ يحاول أن يقوض الحواجز المدنية والعنصرية التى حددت من نشاطه خلال العصور . وذلك عن طريق الماسونية التى يغزو بها الطبقات العليا من موظفى الحكومة والبورجوازية السياسية والاقتصادية وإلى جانب الماسونية يستخدم أداة هامة قوى نفوذها مع تطور العصر الحديث ألا وهى الصحافة. فهو يستولى على هذا السلاح الثانى ويستعمله فى خدمة اليهود ، لا سيما فى الوقت الذى أصبح فيه « الرأى العام » قوة يحسب لها الحساب فى توجيه الحياة العامة للشعوب فهذه الصحافة تعلن حرباً متعصبة ومتجنبة لتقويض كل شىء يعد دعامة للاستغلال القومى . والتهذيب الثقافى ، والاستقلال الاقتصادى للأمة وتستهدف الصحافة أول ما تستهدف القضاء على الشخصيات المستقلة التى قد تقاوم الأثر الصهيونى أو التى لا تتفق أرواحها وروح الصهيونية . ويدعو الجبن الطبقات العليا إلى التخلى عن الشخصيات المهاجمة كما أن البساطة والغباء يدعوان الطبقات العاملة إلى التصديق .

ولقد مهد التطور الاجتماعى والاقتصادى الطريق لأن تبلغ وسائل الصهيونية أهدافها . فنشوء الطبقات العاملة من عمال المصانع وصغار الموظفين والفلاحين النازحين إلى المدن وغيرهم ممن جعلهم النظام الاقتصادى

يعيشون فى حالة من البؤس لا تحتمل ومن الكفاح فى سبيل العيش كفاحاً أفقدهم الثقة بالعدالة الاجتماعية ، هيأ لليهودى الصهيونى الظروف المواتية لأن يتقمص شخصية الزعيم لهذه الطبقات المظلومة فعلا والتى يساهم هو عن طريق سيطرته على التنظيم الاقتصادى فى استقلالها ، وذلك ببنائه الحركة الاتحادية للعمال ، وتبنيه للمثل الأنسانية من تقدم ومعرفة وتنوير وحرية ومساواة وعدالة اجتماعية بالرغم من أنه يدعو هو أبناء قومه إلى العزلة التامة والمحافظة على الجنس المختار والاستمتاع بمزايا التفوق والامتياز ، وهكذا يصبح اليهودى الصهيونى بعد أن كسب الحقوق المدنية عن طريق البورجوازية زعيما سياسياً فى عهد سيادة الطبقة العمالية . ولكن هتلر لا يفقد الأمل فى العودة بالعمال إلى حظيرة الوطن وتخليصهم من الدعاية اليهودية المسمومة ، وذلك بإعادة المسئولية القومية والتضامن الاجتماعى إلى ميدان السياسة الألمانية ، فهو لا يعتقد فى أن تترك أبناء الوطن دون تأمين لعيشهم فى حاضرهم وشيخوختهم ثم تطالبهم بالوطنية والعنصرية . فالخطر اليهودى الذى يصيب الوطن من جراء العبث بالوحدة القومية والسخرية من تاريخ الشعب ومثله وتقاليده والعمل على اختلاط العناصر فيه يجب أن يقاوم بإقامة نظام وضى اشتراكى يهدف إلى تحقيق الأمن والعدالة والقوة ويعيد الكافرين من أبناء الوطن إلى الإيمان بمواطنيهم . وفى ذلك وحده يرى هتلر السبيل إلىتفادى استكمال الصهيونية الخطوة الأولى بالخطوة الثانية ، والثورة الاقتصادية بالثورة السياسية ومرحلة الإقناع بمرحلة العنف . فاتحادات العمال التى تنطوى على الخير الكثير للوطن قد تجعل

منها الصهيونية أداة للصراع بوقف العمل فى شكل إضراب عام خدمة لفكرة سياسية .

وما هذه الفكرة السياسية إلاّ تحقيق السيادة الصهيونية العالم ، ويذهب هتلر إلى أن الصهيونيين قد بلغوا فى تحقيقها شوطاً بعيداً . ويستدل على رأيه بما يبديه اليهود فى العالم من ثقة بأنفسهم تظهر إلى جانب إعلانهم الانتساب إلى أوطان مختلفة فى تأكيدهم أن اليهود شعب وجنس وليسوا جماعة دينية ، وأن لهم أهدافاً قومية وسياسية يبتغون الوصول إليها . أما مدى هذه الأهداف فإن هتلر يرى أنها لا تقف عند حدود فلسطين كما يدعى الصهيونيون . وإنما فلسطين مقر لتنظيماتهم المركزية لتحقيق السيطرة العالمية ويصف هتلر ذلك فى قوله :

« إن سيطرة اليهودى فى كل دولة لا تبدو سيطرة راسخة حتى إنه لا يستطيع أن يسمى نفسه يهودياً وحسب ، وإنما يعلن دون رحمة تدبيراته القومية والسياسية . ففريق من جنسه يعترفون فى صراحة بأنهم شعب أجنبي . غير أنهم حتى فى هذا يكذبون . لأنه بينما يحاول الصهيونيون أن يقنعوا بقية العالم بأن الوعى القومى لليهودى يتحقق بخلق دولة فى فلسطين فهم أيضاً ماكرون يخدعون غيرهم من الأمم ، فلن يدخل فى رؤوسهم أن يبنوا دولة يهودية فى فلسطين من أجل الحياة هنالك ، وكل ما يبتغون هو إقامة تنظيم مركزى لخداعهم الدولى للعالم ، تكون له حقوق السيادة الخاصة به ويكون بعيداً عن تدخل الدول الأخرى يبتغون مرسى للأوغاد المجرمين وجامعة للمعوجين الناشئين ، وأنه لعلامة على ثقتهم المتزايدة

وإحساسهم بالأمن ، أنه فى الوقت الذى يمثل فريق منهم دور الألمانى والفرنسى والإنجليزى يخرج الفريق الآخر فى وقاحة مكشوفة بدعوى أنه الجنس اليهودى » .

وهكذا يعلق هتلر عند نهاية الربع الأول من القرن العشرين على اقتراب الحركة الصهيونية من بلوغ غاياتها ، وعلى مهارة اليهود فى أن يعلنوا أنهم اندماجيون وانفصاليون فى الوقت نفسه . فهم تارة من الشعوب الأخرى وهم تارة شعب متميز له خصائصه الجنسية ومطالبه القومية . ولكن هتلر فى صدر شبابه لم يحس بصدق الادعاءات الصهيونية . فليس هنالك فيها انقسام حقيقى فى المشاعر ، وإنما هم جميعاً وحدة لاتتجزأ. وأن اختلفوا فإنما على وجهات السياسة التطبيقية ، لا على نوايا الخطة الدولية فى أن يحكموا ويسودوا ويمتازوا على البشر . وما الصهيونية إلاّ حركة للسيطرة العالمية وما هى كذلك إلاّ تجسيم نهائى لمظاهر السلوك القومى الصهيونى فى التاريخ بين الشعوب . وهو يصف الحركة الصهيونية فى مهد من مهادها الخصيبة — فيينا — فيقول :

« لقد وجدت بينهم حركة عظيمة واسعة الانتشار إلى حد كبير فى فيينا ، ظهرت فى وضوح تأييداً للسلوك القومى لليهود : وهذه كانت حركة الصهيونيين .

وبدا كأن جزءاً من اليهود قد وافق على هذه الوجهة ، على حين أن الأغلبية العظمى قد استهجنت ورفضت رفضاً حقيقيا مثل هذا التنظيم ولكن حين يختبر هذا المظهر بدقة أكثر ، نراه قد تحول إلى بخار

غير مستساغ من الأعذار التى تقوم لمجرد أسباب اللياقة إن لم تكن أكاذيب . لأن الذين يسمون اليهود الأحرار لم يرفضوا الصهيونيين ويعدونهم غير يهود . ولكن نظروا إليهم كيهود ذوى طريقة غير عملية وربما خطره من ناحية الجهر العلنى بيهوديتهم .

ولكنهم جميعاً ظلوا فى الجوهر أجزاء من قطعة واحدة لا يتغيرون » .

وإذ ننظر الآن إلى فهم هتلر للصهيونية بعد انقضاء أكثر من جيل على ما كتب . كشف الكثير مما حاول الصهيونيون أن يخفوا فى فترة التدبير والتحضير، وبعد أن ظهرت الصهيونية مزهوة بغدرها وجرمها فى الجيل الثانى من القرن العشرين ، نتبين فى جلاء أن تجربة أوروبا الوسطى مع الصهيونية ما هى إلا مقدمة لتجربة الشرق الأوسط معها . وأن دراستها بيننا يجب أن تعتمد على جذورها التاريخية فى الماضى البعيد والقريب . وفى الغرب قبل الشرق ، وفى المسيحية قبل الإسلام . فالصهيونية فى الواقع ما هى إلا السلوك القومى لليهود فى تفاعله عبر التاريخ مع الشعوب وفى تبلوره تحت ضغط المدنية الغربية الحديثة .

الفصل الثالث

الصهيونية والاستعمار

إسرائيل مركز الاستعمار وحرسه فى الشرق الأوسط :

قامت إسرائيل على تعاقد . ومن طبيعة هذا التعاقد استمدت وظيفتها . فوعد بالفور بإقامة الوطن القومى لليهود فى سنة ١٩١٧ ، ليس سوى وعد أمة إلى أقلية دينية أن تعطيها بلد أمة أخرى . ولكن فى الواقع أن ذلك التعاقد لم يكن إيجابياً من ناحية البريطانيين وحدهم ، بل إن اليهود كانوا أسبق إلى تقديم التعهدات بخدمة الاستعمار البريطانى فى حاضره ومستقبله . وليس هناك أبلغ فى وصف وظيفة إسرائيل من البرنامج الذى وضعه لها ويزمان وهو ينشر الدعوة إلى إنشائها بين الإنجليز فى أوائل هذا القرن . فلقد قرر أن هذه الوظيفة ثنائية القصد ، فهى تتمثل فى خدمة الشعب اليهودى وتأييد الاستعمار البريطانى . ويبدو هذا فى خطاب كتبه فى مستهل الحرب العظمى الأولى فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ إلى مستر سكوت رئيس تحرير جريدة المانشيستر جارديان ، الذى كان له الفضل الأول فى الدفاع عن قضية الصهيونية بين حكام انجلترا فى ذلك الوقت ، إذ يقول :

« ألا ترى أن فرصة الشعب اليهودى أصبحت الآن فى حدود المناقشة على الأقل ؟ وإنى لأدرك بالطبع أننا لا نستطيع أن « ندعى »

أي شيء ، فنحن متناهون فى الصغر والتوزع حتى نطمح إلى ذلك . ولكن يمكننا أن نقول فى حدود العقل إنه لو وقعت فلسطين فى دائرة النفوذ البريطانى ، ولو شجعت بريطانيا إقامة مستعمرة يهودية فيها كمحمية بريطانية ، فإننا سوف نستطيع فى عشرين إلى ثلاثين سنة أن يكون لنا هنالك مليون يهودى ، وربما أكثر . وسيقوم هؤلاء بتحسين حالة البلد ، ويعيدون إليها الحضارة ويؤلفون حرساً فعالا جدا لقناة السويس » .

وهكذا تشمل فكرة إنشاء دولة لإسرائيل على تخليد الصلة بين الأب والابن وإغراء الأب بالإقدام على خلق الفرصة الاستعمارية بالاستيلاء على أرض الخلافة العثمانية فى الشرق العربى وتبنى هذا الوليد الذى يهب نفسه لخدمة الاستعمار ويتعهد بأن يقوم له فى مستقبل الأيام بحماية شريان مواصلاته الإمبراطورية فى قناة السويس ومصر .

ولقد ظل ويزمان طيلة حياته وهو يفاخر بفضل اليهود على الاستعمار البريطانى ، وأنهم هم أصحاب فكرة احتفاظ البريطانيين بفلسطين وجعلها يهودية حتى يضمنوا لأنفسهم منها حليفاً طبيعيا ويجدوا فى أرجائها موطىء قدم ثابت ، وحصناً يعتمدون عليه فى السلم والحرب ، وقد أحس ويزمان بالنشوة حين أخذ يقارن بين ولاء اليهود فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية فى وقت كانت القوات الفرنسية فى سوريا تدين بالولاء لحكومة فيشى ، وكان رشيد عالى الكيلانى يهدد الحلفاء بالثورة فى العراق . وذهب به تحقق رأيه فى نفع اليهود للاستعمار البريطانى بعد جيل من

اعلانه أن أخذ ينهى عن نفسه ببعد نظر فى السياسة لم يكن يتوقعه ، أو يدرك أهميته حين كان يمهد له ويهيىء الظروف للتعاقد عليه . فهو يقول فى كتابه « التجربة والخطأ » .

« إن اليهود هم الذين أعطوا جوهراً وحقيقة لفكرة إنشاء المحمية البريطانية — التى اتخذت بعد ذلك شكل انتداب — على فلسطين . ولقد كانت حركتنا وعملنا ، ورأس مالنا وتضحيتنا التى وضعناها فيها هى التى جعلت الاقتراح جذاباً ، وفى الواقع ذا هدف . وإن التقدم الذى أحرزته فلسطين فى هذه السنين يعزى إلى جهودنا ، كما شهدت بذلك لجنة بعد أخرى ، وأعتقد أن نتائج معينة تصدر عن جميع هذه الحقائق .

« لقد بينا منذ أمد طويل للبريطانيين ورددت هذا أيضاً فى مقابلتى مع اللورد روبرت سسيل Robert Cecil أن فلسطين اليهودية ستكون حرساً لانجلترا خاصة فيما يتصل بقناة السويس . وكان لبصرنا النافذ آثار أكبر مما أدركناه أنفسنا . وإنه لمن الملائم أن نسأل : بعد مضى فترة ربع قرن والحرب العالمية الثانية لا تزال حية فى ذاكرتنا ، عما كان يئول إليه الموقف فى الشرق الأدنى ، لا بالنسبة لانجلترا وحدها ، بل بالنسبة لقضية العالم الديموقراطية ، لو أننا لم نقدم فى فلسطين موطىء قدم لانجلترا ، ولو أصبحت فلسطين ، بدلا من الحصن الذى أقيم على هذا النحو مفتوحة مثل سوريا والعراق لزحف نازى بعد سقوط فرنسا . وأرى أنه من الممكن السماح لى أن أقول إنه كان هنالك شىء متصل

بالعناية الإلهية فى إصرارنا على الترتيب الذى وضعناه . والجهود التى بها نفذناه .

« كما أنه لا يمكن أن يعترض بأن كل هذا هو مجرد حكمة بعد الحدث . فلقد كنا دائماً نرى عشرات من السنين مقدما . وحين وجدت أن سيكس Sykes متردد بعض الشيء حول خططنا ، كتبت إلى سكوت Scott فى ٢٠ مارس سنة ١٩١٧ : « أنه لا يسعنى إلا أن أشعر بأنه يعد المشروع الصهيونى كملحق بالمشروع الأكبر الذى يعالجه وهو المشروع العربى . وبالطبع أنى أفهم أن الموقف العربى فى الوقت الحاضر أكثر أهمية من وجهة نظر السير المباشر للحرب من المسألة اليهودية التى تتطلب نظراً أبعد لتقدير مغزاها ، ولكن سيصعب عملنا جداً إذا لم تحدد المصالح اليهودية فى فلسطين تحديداً واضحاً فى جميع المفاوضات الحاضرة مع العرب » .

« وأعتقد أنه من الملائم أيضاً أن أسأل ماذا كان يبقى اليوم من الحقوق العربية لا فى فلسطين وحسب وإنما فى سوريا والعراق وحتى فى جزيرة العرب السعودية ، إذا لم يكن نظر اليهود الثاقب قد خلق ، موطىء القدم البريطانى فى الشرق الأدنى وأيده بوطن يهودى قوى ، لم يكن ولاؤه للقضية الديموقراطية مجرد تعبير لفظى ، وإنما عبر عن نفسه بالعمل » .

قوة الصهيونية العالمية :

ولكن مثل هذا الدفاع الذي يسوقه ويزمان عن التعاقد بين الصهيونية والاستعمار على اغتصاب موطن العرب وجعله موطناً لليهود ، واستحضار الروح الدينية والعناية الإلهية لتبريره كما برر أجداده فى التوراة اشتراك « يهوه » الإله فى سفك دماء المصريين القدماء ودماء ما يملكون من حيوان ، إنما هو فى الواقع تغطية للقسر والقهر الذى مارسه الصهيونيون مع الاستعمار البريطانى ليعطى صك الخضوع فى إعلانه لوعد « بالفور » . وإن كان تبادل الخدمة بين الصهيونية والاستعمار هو الرباط الذى جمع حقاً بينهما كما يشير إلى ذلك ويزمان ، إلا أن أسلوب تنفيذ هذا الترابط قد غير من جوهر هذه الخدمة ومغزاها . فهى ليست خدمة بين أنداد وإنما هى خدمة أبرز ما فيها تناقض الإصطلاح . إذ أن الصهيونية فرضت هذا التعهد على الحكومة البريطانية فرضاً . وكانت هى صاحبة الكلمة العليا والإرادة النافذة . وظل هذا الموقف غير المتكافىء بين الصهيونية والاستعمار البريطانى هو المقرر لتنفيذ وعد بالفور طيلة عهد الانتداب كما كان عند إصداره ، وإن المطلع على تاريخ الانتداب البريطانى فى فلسطين والمتتبع للعلاقة بين اليهود والإنجليز فى ذلك الوقت ، يجد نفسه أميل إلى وصف المحور الذى كانت ترتكز عليه هذه العلاقة بأنه « السخرة » لا « الخدمة » وأن تلك السخرة لم تتحول إلى خدمة متبادلة بين الصهيونية والاستعمار

إلا فى مرحلة متأخرة بعد أن أعلن قيام إسرائيل كدولة مستقلة ، وظهرت حقيقة الصلة بين الطرفين فى جو تاريخى جديد ، كان لثورة مصر فى سنة ١٩٥٢ أكبر الأثر فى خلقه فى هذا الجزء من العالم الذى نعيش فيه .

وقد بلغت الصهيونية المرتبة التى تستطيع معها أن تسخر الاستعمار البريطانى لتنفيذ مآربها قبيل الحرب العالمية الأولى ، وذلك بعد أن دانت لها أعناق الحضارة الغربية فى طورها الرأسمالى وأمسكت بخيوط نشاطها فى نواحيه المختلفة . ويشير إلى هذه السلطة الضمنية للصهيونية العالمية ويزمان نفسه وهو يتحدث إلى بالفور فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، إذ يقول ، إن بالفور قد قص عليه رأى مسز فاجنر أرملة مؤلف الموسيقى الألمانى ، الذى أخبرته به منذ عامين وهو أن « اليهود فى ألمانيا قد استولوا على المسرح والصحافة والتجارة والجامعات الألمانية ، وأنهم يضعون فى جيوبهم بعد مائة عام فقط من تحريرهم كل شىء بناه الألمان فى قرون » . وفى الواقع أن هذه الصورة التى ترسمها السيدة أرملة فاجنر لما بلغه اليهود من قوة شاملة فى ألمانيا فى عهد التحرير الغربى الحديث فى السياسة والثقافة والاقتصاد والاعتقاد إنما تنطبق فى أشكال معدلة من حيث الوضوح والشمول على ما بلغوه فى بلاد أخرى مثل فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا وروسيا . وقد كان هذا هو الحال السائد قبل أن يخط هتلر بسنين سطراً من كتابه « كفاحى » فى وصف تلك الصورة بالتفصيل .

الصهيونية ورجال الحكم :

وإذ بلغت الصهيونية هذه القوة فى الغرب الحديث ، أخذت تستغل فى أسلوب ماكر متآلف جوانبها المتعددة فى التأثير على أشخاص رجال السياسة والأحزاب والحكومات والدول حتى يبوئوا بنى إسرائيل مكانة سياسية مستقلة ويحققوا لهم الحلم العنصري الذى راود دزرائيلى وصوره فى بيانه الأثيري فى « تانكريد » وهو يزعم أن العنصرية أهم حقيقة فى تاريخ البشر وأن لقومه الحق فى أن يعودوا إلى صهيون . وأنه لمما يساعد على فهم الصهيونية وتفاعلها مع قوى الاستعمار منذ أن نشط هرتسل لنقل فكرة الصهيونية إلى حيز السياسة الدولية ، أن يراها وهى تسلط قواها لتحريك بعض عملائها فى الحياة العامة . ولنبدأ فى هذا المجال بالأقطاب الأربعة الذين كان لهم فضل إصدار وعد بالفوروهم: لويد جورج . وبالفور . والرئيس واسون . وسمطس .

أما لويد جورج فقد كان صريحاً فى وصف لقائه مع الصهيونية إذ يخبرنا أنه وهو رئيس للحكومة البريطانية وجد نفسه فى أزمة من أزمات الحرب العاتية التى تقرر مصير الإمبراطورية ذاته ، ووجد أن المخرج فى يد الصهيونية العالمية خاصة فى مركزها الأمريكى فلم يتردد فى أن يعقد معها ثمن الخلاص لاسيما وأن رطل اللحم الذى اشترطه شيلوك للوفاء بدينه سيقتطع من لحم العرب لا من لحم الغرب ولن يهمه أن يستنزف قطعه دماء العرب والقضاء على حياتهم كما راعى ذلك قضاة

البندقية فى المحافظة على دم أنطونيو وحياته عندما طالب شيلوك بتنفيذ عقده معه . فتقرير اللجنة الملكية لفلسطين المنشور سنة ١٩٣٧ يذكر الشهادة الآتية على لسان لويد جورج :

« إن فى الشهادة التى أدلى بها أمامنا مستر لويد جورج الذى كان رئيساً للوزارة فى ذلك الوقت قرر أنه بينما كانت القضية الصهيونية مؤيدة على نطاق واسع فى بريطانيا وأمريكا قبل نوفمبر سنة ١٩١٧ كان إعلان تصريح بالفور فى ذلك الوقت يرجع إلى أسباب الدعاية وقد شرح الموقف الخطير الذى كانت فيه الدول المتحالفة . فالرومانيون كانوا قد سحقوا . وفقد الجيش الروسى روحه المعنوية . وكان الجيش الفرنسى غير قادر فى تلك اللحظة على أن يقوم بالهجوم على نطاق واسع . ونزلت بالإيطاليين هزيمة كبرى فى كابوريتو. وأغرقت ملايين من أطنان السفن البريطانية بواسطة الغواصات الألمانية . ولم تصل بعد أى فرق أمريكية إلى المعركة . فساد الاعتقاد فى هذا الموقف الخطير أن العطف اليهودى أو العكس سيحدث فرقاً محسوساً فى ناحية أو أخرى بالنسبة لقضية الحلفاء . وعلى وجه الخصوص فإن العطف اليهودى سيضمن تأييد اليهود الأمريكيين وسيجعل من العسير على ألمانيا أن تخفض التزاماتها العسكرية وتحسن مركزها الاقتصادى فى الجبهة الشرقية » . ويستطرد لويد جورج فى شهادته إلى أن يقول إن زعماء الصهيونيين وعدوا « بأن يبذلوا قصارى جهدهم لتعبئة العاطفة والعون اليهودى فى العالم جميعه لمناصرة قضية الحلفاء . وقد حافظوا على كلمتهم » .

ويمكن فهم مضمون هذه الشهادة التي أدلى بها لويد جورج أمام اللجنة الملكية لفلسطين عن دوافع الحرب والضرورة العسكرية التي سيطرت على تصرفات بريطانيا وهي تعطي وعد بالفور دون سند قانوني أو أخلاقي إن نحن ذكرنا إلى جوارها ما سبق أن أعلنه تشرشل في تبرير هذه الصفقة منزهاً إياها عن العوامل العاطفية أو الرومانتيكية ومؤكداً أنها مساومة عملية خالصة جديرة بالخلق القومي والسلوك التقليدي للشعبين البريطاني واليهودي . فهو يقول في تصريح له للوكالة اليهودية التلغرافية في أول نوفمبر سنة ١٩٣٠ إن قضية الحلفاء في سنة ١٩١٧ كانت في خطر عظيم وان ذلك العام « كان الوقت الذي يئس فيه من النصر كثير من الذين لم يصبهم التردد بعد . وكانت اللحظة التي حاول فيها أشد العناصر عزماً أن يعبئوا كل نفوذ يمكن له أن يشد من أزر الأمم المتحالفة » . ويضيف إلى تفسير هذا المبدأ العام تقريره أن الصهيونيين في أمريكا هم الذين كان بيدهم الإنقاذ إبان تلك الأزمة المهددة بالدمار في قوله « إن الحركة الصهيونية في جميع أنحاء العالم كانت مناصرة للحلفاء وبمعنى خاص مناصرة للبريطانيين ولم تكن تلك الحركة أكثر ظهوراً منها في الولايات المتحدة وكان على المساهمة الفعالة للولايات المتحدة في الصراع الدموي القائم يتوقف جانب كبير من آمالنا . وقد مارس زعماء الحركة الصهيونية القادرون وفروعهم الواسعة الانتشار نفوذاً كبيراً على الرأي الأمريكي . » ويخرج تشرشل من هذا التصوير للموقف الحربي والحاجة إلى العون الصهيوني الإيجابي في الولايات المتحدة إلى

النتيجة المحتومة من خضوع الحكومة البريطانية لمشيئة الصهيونية ثمناً لتأمين بريطانيا وحلفائها ضد انتصار الألمان وذلك بزج الأمريكيين فى المعركة الأوروبية فى الوقت المناسب والاحتفاظ بمساهمتهم فى هذه المعركة واستمرارهم فيها إذا ما دخلوها . فيقول : « ولهذا فإن تصريح بالفور ، يجب ألا يعتبر وعداً أعطى بوحى من الدوافع العاطفية ، وإنما كان إجراء عملياً أخذ لصالح قضية عامة فى لحظة لم يكن فى وسع تلك القضية أن تغفل أى عامل من عوامل المساعدة المادية أو المعنوية .

وهكذا تقابلت مصلحة الصهيونية والاستعمار فى لحظة من اللحظات النادرة فى تاريخ البشر . ولكنه تقابل لم يكن فى سبيل الله كما ادعى ويزمان وإنما كان فى سبيل شيطان ذى رأس مزدوج . فما إن وقف الصهيونيون على ورطة البريطانيين وقدروا فداحتها حتى أصروا على أن يدفعوا ثمن نجاتهم من أنفسهم فوق ما يدفعون من حياة العرب وبلادهم . والثمن النفسى الذي طلبه اليهود من البريطانيين فى هذه المحنة يقوم على استشعارهم الذل والهوان أمام ورثة شيلوك فى استغلال أزمة المعوزين . ويقص علينا ويزمان فى تواضع وقح مصطنع ما وجد سير مارك سيكس ، ممثل الحكومة البريطانية فى جلسة من جلسات التفاوض مع اللجنة الصهيونية فى لندن بشأن شروط الإنقاذ ، على يدي الدكتور جاستر "Dr. Gaster" من مصارحة « بمستقبل انجلترا المظلم فى الحرب » . ويعلق ويزمان على هذا الإذلال لممثل بريطانيا بقوله « لقد كان الموقف

أليماً، وأنه لمما يشهد بتسامح سيكس وسعة ذهنه أنه لم يخرج احتجاجاً من الحجرة التى كان الاجتماع معقوداً فيها ببيت الدكتور جاستر نفسه ، ولكن ما كان فى وسع السير مارك سيكس أن يخرج من منزل رئيس اللجنة السياسية الصهيونية فى بريطانيا بعد أن دخله ، وهو فى ذلك يمثل إمبراطورية بلاده التى لم تستطع أن تخرج من يد الصهيونية منذ أن دخلت فى قبضتها . وقد قدم الصهيونيون أول مذكرة رسمية إلى الحكومة البريطانية بشأن مطالبهم فى فلسطين فى آخر يناير سنة ١٩١٧ وبدأت أول جلسة رسمية للتفاوض مع السير مارك سيكس ممثل الحكومة البريطانية فى صباح ١٧فبراير سنة ١٩١٧ برئاسة الدكتور جاستر . وقد أعلن السير مارك سكس "Sir Mark Sykes" أن « فكرة فلسطين اليهودية تمتلك عطفه الكامل » . وأخذ زعماء الصهيونية منذ ذلك الوقت يشتركون فى صياغة الشكل المناسب لتعهد البريطانيين بتحقيق فلسطين اليهودية والذى عرف فيما بعد بتصريح بالفور . ونال الصهيونيون هذا الحق المكتسب فى إملاء رغباتهم السياسية على الحكومة البريطانية بما حققوا من وعود الإنقاذ من ورطة بريطانيا العسكرية كما عبر عن ذلك لويد جورج وتشرشل .

الصهونية الأمريكية :

ويصف ويزمان فى عبارات ذات مغزى عميق الاستجابة السريعة للصهيونية الأمريكية تحت قيادة مستر برانديز Brandeis ، بعد أن

أقرت بريطانيا باستعدادها لتحقيق دولة إسرائيل . كما يصف إجلال بريطانيا للصهيونية فى شخص برانديز على لسان بالفور وهو يكاد يقول إن الصهيونية هى صاحبة السيادة الحقيقية فى الولايات المتحدة فيما يتصل بمسألة فلسطين ، وإن زعيمها هو الرئيس الفعلى لها وأنه هو الذى دفع بها إلى الحرب لإنقاذ الإمبراطورية البريطانية لإقرار رئيسها الرسمى واسون . ويكفى أن نسوق قول ويزمان فى هذا الصدد ليظهر لنا خطر الصهيونية العالمية حين تتسلط على مصائر الدول الكبرى وتسخرها لصالحها الصهيونى فى العصر الحديث » . ولم يمض وقت طويل حتى أمكن للمستر برانديز أن يلقى بالوزن الكامل لشخصيته الممتازة فى كفتى الميزان . ودخلت أمريكا الحرب فى مارس من تلك السنة . وفى ٢٠ ابريل وصل مستر بالفور إلى أمريكا فى بعثة خاصة ، وقابل عند وصوله مباشرة تقريباً القاضى برانديز فى حفلة فى البيت الأبيض . وتذكر مسز دجديل "Dugdale" كاتبة سيرة حياة بالفور . أن أول ملاحظة وجهها إلى برانديز هى « أنك أحد الأمريكيين الذين أردت أن أقابلهم وتستطرد « لقد قال بالفور للورد يوستيس بيرسى "Eustase Persy" ، وهو عضو فى بعثته ، إن برانديز فى بعض النواحى أبرز رجل قابلته فى الولايات المتحدة . ويبدو من مثل هذه المذكرات عن المحادثات التى بقيت أن بالفور أعطى على نفسه عهداً بتأييده الشخصى للصهيونية . وقد سبق أن أعلن ذلك من قبل للمستر ويزمان ولكنه وهو الآن وزير خارجية بريطانيا . ويبدو أن مستر برانديز أخذ يزداد فى تأكيده أثناء

استمرار زيارة البعثة البريطانية حول رغبة الصهيونيين الأمريكيين فى أن يروا إدارة بريطانية فى فلسطين » .

ولم ينفرد ويزمان بتمجيده لنفوذ الصهيونية الأمريكية وزعيمها برانديز فى البيت الأبيض ، بل إن كتاب الصهيونية وزعماءها فاخروا بهذا السلطان الذى بلغه مستشار ولسون الصهيونى على رئيس جمهورية الولايات المتحدة . وقد حاول بعض كتابهم أن يعزوا هذا النفوذ لما قدمت الصهيونية من خدمة جوهرية فى انتخاب الرئيس واسون . ونعتقد أنه أطلق لهم العنان فى تدبير السيطرة على المعارك الانتخابية السياسية بالدعاية والمال وتوجيه أصوات الناخبين اليهود ، حتى ظهر أثرهم الواضح فى تشكيل الحياة العامة لرجال السياسة والأحزاب والدول الغربية . ويظهر هذا فى أمريكا من مقال كتبه الدكتور ستيفن س. ويز "Stiphen S. Wise" عن « تصريح بالفور ومغزاه فى الولايات المتحدة الأمريكية » إذ يقول « إن زعامة اللجنة المؤقتة للشئون الصهيونية ، خاصة المستر برانديز الذى أصبح بعد قليل السيد القاضى برانديز ، وجاكوب ده هاس "Jakob de Haas" وكاتب هذا المقال ، وكلهم قد أيد فى قوة ترشيح ولسون لرئاسة الجمهورية — قد بدأت بعد إعلان الحرب العالمية الأولى تناقش الصهيونية ومشاكلها مع رئيس الجمهورية . فاستجاب مباشرة وبحرارة إلى المثل الأعلى الصهيونى . وقد تحرك جزئياً بما فيه من تراث الكنيسة الأسكتلندية البرسبيتيريان ، وحتى أكثر من هذا بكونه ابنا لقسيس من قسس البرسبيتيريان . وبدأنا فى أوائل سنة ١٩١٦ نسمع

عن المناقشات الخاصة بفلسطين بواسطة الصهيونيين الإنجليز ، وقد أضاف الدكتور موسى جاستر ، "Moses Gaster" الحاخام الإسبانى والبرتغالى لإنجلترا إلى تأييد هذه الحركة هربرت صمويل "Herbert Samuel" وهو عضو بارز فى حكومة الأحرار ووزارة آسكويث "Asquith"، واستمر اتصالنا الوثيق الدائم بالمجموعة الإنجليزية ، التى صارت بعد ذلك تحت سيطرة الكيماوى الشاب فى مانشستر الدكتور ويزمان ، والعالم المستنير ليفين — ابشتين "Levin-Epstein" وهو يهودى فلسطينى من أرقى العناصر . » ويكمل الدكتور ستيفن س . ويز صورة التعاون بين الصهيونية البريطانية والأمريكية من ناحية وبين حكومة بريطانيا، والولايات المتحدة من ناحية أخرى فى إصدار تصريح بالفور بقوله :

« ولكن كاتب هذا المقال عنده ما يبرر علمه بأنه حين أتت المسودة الأخيرة من إنجلترا ، قدمها الرئيس ولسون إلى القاضى برانديز ، ومن أيديهما حولت إلى الكولونيل هوس . وأرسل إلى الأخير وإلى جاكوب ده هاس ، وأتيحت لى كل فرصة لمناقشتها مع الوزير غير الرسمى للرئيس ولسون . وقد وافق على كل اقتراح قدمناه بما فى ذلك اقتراح أصبح جزءاً من التاريخ اليهودى ولكن لا يمكن حتى الآن أن نناقشه علناً » .

وأن مثل هذه الاعترافات الجلية والمقنعة التى أدلى بها زعماء السياسة فى إنجلترا وزعماء الصهيونية العالمية ليدل دلالة واضحة على أن اليهود

بإملائهم سياسة الصهيونية على لندن وواشنطون أثناء الحرب العالمية الأولى قد بلغوا المرحلة التطورية التى استطاعوا فيها أن يمسكوا بمفاتيح أسواق السياسة الدولية مثلما استطاعوا من قبل أن يمسكوا بمفاتيح أسواق الاقتصاد الدولى ، وأن يصبحوا الخالقين والمدمرين للحياة العامة لرجال السياسة عن طريق إدارتهم لعمليات الانتخاب والسيطرة على الناخبين ، وأن يصلوا عن طريق هذه العوامل الشخصية إلى تحقيق الأهداف الكبرى اللاشخصية . ولهذا فليس من الغريب أن نجد رجال الصهيونية يدلون على قادة الساسة الذين اشتركوا فى إصدار تصريح بالفور بأن عونهم الشخصى لهم فى معترك الانتخابات قد ضمن لهم الفوز والنجاح فى حياتهم العامة بين شعوبهم . فكما نرى الدكتور ستيفن ويز يشير إلى فضل اليهود على الرئيس ولسون من هذه الناحية ، نرى الدكتور ويزمان يشير كذلك إلى فضل اليهود على بالفور فى انتخابات سنة ١٩٠٦ بمانشستر ، وكذلك نرى ساره جرترود ميلين "Sarah Gertrude Millin" تصف لنا مدى ما يدين به سمطس وحزبه إلى تأييد اليهود فى جنوب أفريقيا . فإن ويزمان فى صلفه المتواضع يسرد قصة الدرس الأول الذى أعطاه لبالفور عن الصهيونية بعد أن قدمه إليه شارلز دريفوس "Charles Dreyfus" الذى كان مديراً لمصانع كلايتون Clayton "Aniline Works" ورئيساً لجمعية مانشستر الصهيونية ، وعضواً فى مجلس مدينة مانشستر ورئيساً لحزب المحافظين فى مانشستر . ولقد تم اللقاء فى مانشستر أثناء معركة انتخابية ، عندما كان بالفور أحد المرشحين

فى ذلك الانتخاب العام عن دائرة كلايتون ، وكان عليه أن يسعى إلى الحصول على تأييد أصوات اليهود وزعامتهم فى معقلهم التقليدى بمانشستر. ويستطرد ويزمان فى إخبارنا عن اقتناع بالفور فى جو الانتخابات الصاخب بأن فلسطين هى الوطن الذى لابد منه لنجاح الحركة الصهيونية باستغلال الجانب الروحى والمعتقد الدينى المتوارث عند اليهود والتعبير عنه فى مصطلحات سياسية حديثة . ومن يتتبع فى الواقع الخطابات التى ألقاها بالفور عن الصهيونية وهو يدافع عن التصريح المعروف باسمه لا يجدها تخرج عما تلقى فى هذا الدرس الأول من صهيونى فى جو المعركة الانتخابية التى أدارها لحسابه صهيونى آخر .

وأما سمطس ، القطب الرابع فى تصريح بالفور ، فقد ذهب فى تأييده للصهيونية مذهباً وصفه ويزمان فى تعاليه السافر نحوه بأنه « ولاء » إذ يقول « فى الواحد والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩١٧ تحدثت حديثاً آخر مع سمطس — وهو عضو فى وزارة الحرب — وحصلت منه على الترديد المنتظر لولائه . ولم يذهب سمطس فى الخضوع لمطالب الصهيونية فى فلسطين بل وفى بلاده نفسها إلى هذا الحد إلا لأن جنوبى أفريقيا كان ولا يزال معقلا من معاقلها ، وأن نفوذهم السياسى والاقتصادى كان دائماً عماداً من الأعمدة التى قامت عليها زعامته وحياته السياسية بين قومه . ومن الغريب أنه على قدر ما كانت الصهيونية دعامة من دعائم سلطانه ، فقد أدت فى نهاية الأمر إلى سقوطه بعد تخلى حزبه عنه لمؤازرته المتطرفة لليهود بدفاعه عن فتح أبواب الهجرة اليهودية إلى

جنوبى أفريقيا وباعترافه بإسرائيل آخر الأمر بعد ما ذاق الإنجليز على أيدى الصهيونيين فى فلسطين ألواناً من التعذيب المهين التى وحدت عناصر القوم المنحدرين من البربر والإنجليز فى جبهة متحدة ضد الصهيونية المستغلة المتغطرسة وضد ممثلها الأول — سمطس . وقد باع سمطس نفسه للصهيونية لأن اليهود كما تقول ساره جرترود ميلين « من ناحية أغراض الانتخاب ينحازون مع الإنجليز . وهذا يرجع إلى أنهم يتبعون الجنرال سمطس "Smuts" ، الذى كان دائماً صديقهم الوفى لمدة نصف قرن . » وتستطرد قائلة « إنه لمن العجيب أن يحصل اليهود على امتيازات قليلة فى السياسة مقابل صوتهم فى الانتخاب ، إذا ما قوبل بالنفوذ الذى يكسبه إياهم صوت الثلاثة فى المائة فى أمريكا . وقد يعزى هذا إلى أنه قد عرف عنهم أنهم سيعطون أصواتهم للجنرال سمطس . » الذى تصف خدماته لليهود بقولها « أنه الرجل الذى ناصر اليهود ، والذى عارض قانون تحديد نسب المهاجرين إلى جنوبى أفريقيا (ليفتح الباب أمام هجرة اليهود على وجه خاص) والذى حارب هتلر » .

فالصهيونية من هذه الناحية فى استغلالها لحاجة الإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب وفرضها تصريح بالفور على ساستها ، إنما وجدت كذلك فى النظم الديموقراطية الحديثة وما تشتمل عليه من أحزاب تتصارع فى ميادين الانتخاب والحياة العامة الوسيلة التى تكفل لها دوام النفوذ وتجعل من رجال الحكم أدوات طيعة تخدم أغراضها الخبيثة المستترة . وليست قوة الصهيونية فى هذا المضمار قاصرة على عدد أصوات اليهود

فى الانتخابات القومية والمحاية وإنما تعتمد فى ذلك أيضاً على استخدامها لما تملك من ثروة البلاد المادية والفكرية فى تغليب جماعة على جماعة فى النضال السياسى ، بل وفى خلق الزعماء الذين يؤيدون أهدافها والقضاء على من يعادونها . ولم تقف الصهيونية فى فرض إرادتها على الأشخاص والأحزاب والدول عند حد ، بل إن ويزمان يثور ويهجو اللورد برتى "Bertie" السفير البريطانى فى باريس لأنه لم يستقبله استقبالا حسناً فى نهاية سنة ١٩١٤ ولم يستمع لدعوة الصهيونية فى العودة إلى فلسطين بالرغم من أنه « اعتاد تناول الطعام الشهى جداً فى بيت البارون آدموند روتشيلد » . كما أن ويزمان يسخر كذلك من المسيو أريستيد بريياند "Aristide Briand" الذى كان « يثنى على البرتقال الذى تعود أن يستلمه منا كل عيد ميلاد ويصفه بأنه أحسن برتقال أكله . ولكن عواطفه لم تذهب إلى أعمق من جلد ذلك البرتقال » . وان كان برتى الإنجليزى وبرياند الفرنسى لم يستجيبا فى رأى ويزمان من بين رجال السياسة لنداء شهوة البطن ، فقد استجاب غيرهم وسجد على ركبتيه فى محراب الصهيونية لنداء ما قدمت إليه من صنوف الشهوات الأخرى التى لا تقاوم لا سيما شهوة المال والقوة .

وظيفة الانتداب البريطانى فى فلسطين :

ومن الجدير بالذكر أن بالفور وهو يخفى تلك المؤثرات المادية التى أدت إلى إعلان التصريح المعروف باسمه فى ضباب من المبررات الدينية

والميتافيزيقية والمثالية ، ذهب إلى أن النظام الديموقراطي البريطانى سيجعل من ساحة البرلمان البريطانى مركزاً لحفظ ميزان العدالة بين العرب واليهود فى فلسطين ، وسياجاً لحقوق العرب من أن يعتدى عليها اليهود بأكثر مما تسمح به إمكانيات البلاد الاقتصادية فى ظل الاستثمار الصهيونى الرأسمالى . فهو يقول فى هذا المعنى مدافعاً أمام مجلس اللوردات عن نظام الانتداب حين أعلن اللورد « أزلينجتون » فى ٢١ يونية سنة ١٩٢٢ بأنه نظام مجحف بحقوق العرب ، إذ سينتهى بسيادة عنصر على عنصر فى ظل الحماية البريطانية :

« إننى لا أستطيع أن أتصور أية مصالح سياسية تمارس تحت حراسة أعظم مما تمارس به مصالح الشعب العربى فى فلسطين . فإن كل عمل من أعمال الحكومة سيراقب بغيرة . وليس للمنظمة الصهيونية أية صفة من صفات السلطة السياسية . وإن هى استعملت أو اغتصبت سلطات سياسية ، فسيكون هذا عملا من أعمال الاغتصاب . وهل هذا أمر متصور أو ممكن تحت البصر الحديدى لنقاد مثل صديقنا اللورد ، أو لجنة الانتداب التى سيكون عملها أن ترعى تنفيذ الانتداب ، أو الحاكم العام البريطانى الذى غذى وربى فى ظل التقاليد البريطانية عن المساواة ، والحكم البريطانى الصالح ، وأخيراً خلف كل هذه الاحتياطات بحراسة النقد البرلمانى الحر فى مجلس اللوردات ومجلس العموم ؟ إن هذه مخاوف خيالية . وهى مخاوف لا تدعو إلى إزعاج أى ناقد متزن وغير متحيز للحوادث المعاصرة ، ومهما يحدث من شيء

فى فلسطين ، فإنى واثق جداً من أنه تحت الحكم البريطانى لن يسمح بأى شكل من أشكال الاستبداد العنصرى أو الدينى » .

ولكن تاريخ الانتداب البريطانى فى فلسطين أثبت أن الديموقراطية البريطانية لم تعمل لخدمة مثل المساواة وعدم التمييز بين العناصر كما نادى بذلك بالفور ، وإنما تعمل فى إطار من المصالح الصهيونية ولتحقيق هدف عبر عنه بالفور نفسه فى موقف آخر بأنه المشاركة بين الصهيونية والاستعمار فى المصلحة . ولقد أحسن التعبير عن ذلك بقوله مخاطباً الاتحاد الصهيونى الإنجليزى فى ١٢ يولية سنة ١٩٢٠ : « نحن شركاء فى هذا المشروع العظيم . فإذا خذلناكم ، فلن تستطيعوا أن تنجحوا وإذا خذلتمونا ، فلن تستطيعوا أن تنجحوا . ولكنى واثق من أننا لن نخذلكم وأنتم لن تخذلونا ، وإذا صح رأيى كما أعتقد ذلك فى هذه النبوءة التى تنطوى على الأمل والثقة ، فمن المؤكد أننا قد ننظر إلى الأمام بنظرة موفقة إلى مستقبل ستكون فلسطين فيه حقاً وبأكمل مقياس ودرجة من النجاح وطناً للشعب اليهودى » . ولا شك فى أن هذه الشركة فى المصلحة بين الصهيونية والاستعمار من ناحية ونفوذ الصهيونية فى السياسة الداخلية البريطانية من ناحية أخرى هما اللذان جعلا ساسة بريطانيا وأحزابها فى الحكم وخارج الحكم يتنافسون فى معاونة اليهود على احتلال فلسطين غير عابثين بما يستتبعه ذلك من تضحية بالعرب و بلادهم. وكلما حاولت الحكومة البريطانية أن ترعى مصلحة العرب بعد التجائهم إلى الثورات المتتالية . بإصدارها كتابا أبيض يحدد سلطة اليهود فى فلسطين

ونسبة هجرتهم إليها ، وحرية شرائهم للأرض من الأهليين تحت الإغراء بمختلف الوسائل ، عادت فنسخت ما تقرر ، بل وغالت فى ترضية اليهود لتكفر عما أقدمت على مجرد التفكير فيه . فكل تغيير فى سياسة بريطانيا نحو فلسطين فى صالح العرب انقلب بين يوم وليلة تأكيدا لعدوان اليهود وإسرافا فى التعجيل باستكمال تحقيقه . وأن هذه المواقف التى أرادت فيها بعض الحكومات البريطانية أن تقف عدوان الصهيونية على العرب قدمت أدلة متجددة على فساد النظام البرلمانى البريطانى وتعرضه المتكرر لتنفيذ إرادة الصهونية لإرادة العدل والحكم الصالح اللذين يدعى بالفور أنهما الحارس الأمين لمستقبل العرب فى ظل الاستعمار الصهيونى البريطانى .

السياسة البريطانية وبناء دولة صهيون :

وفى الواقع أن كل ركن من أركان العدالة البريطانية والدولية المدعاة فى أرجاء فلسطين مما أشار إليه بالفور أثبت أنه ركن من أركان الظلم العارى أو المقنع للعرب . فالحكومة البريطانية أمام ثورة العرب من أهل فلسطين فى سنة ١٩٢٩ ، نشرت كتابا أبيض فى أكتوبر سنة ١٩٣٠ ، تضمنه تفسيرا محدودا لتصريح بالفور يقوم على أن الوطن القومى لليهود فى فلسطين ليس معناه فرض دولة يهودية عليها وإنما إنشاء مركز لهم فيها وحسب ، ومن ثم فليس للوكالة اليهودية أن تكون دولة داخل الدولة وليس لها أن تحصل على ما تشاء من أرض فلسطين وأن تدخل من المهاجرين اليهود إليها من تشاء دون قيد أو شرط . وقد عرف هذا الكتاب الأبيض

« بكتاب باسفيلد الأبيض » نسبة إلى اللورد باسفيلد وهو « سيدنى وب » الزعيم الاشتراكى ووزير المستعمرات فى حكومة ماكدونالد . فسماه اليهود بالكتاب الأسود ، واستخدموا فى سبيل تقويضه والغائه كل وسائل الضغط التى ارتبطت باسم الصهيونية فى العصر الحديث . فما أن كان من الحكومة البريطانية إلا أن تراجعت تراجعا مخزيا أمام هجمات الصهيونية من داخل حزب العمال نفسه ومن حزب المحافظين المعارض ومن الصهيونية الأمريكية والبريطانية . وإن كانت الحكومة البريطانية لم تعلن عن إلغاء سياستها فى كتاب باسفيلد الأبيض ، إلا أنها سحبتها بأن نشر رامزى ماكدونالد رئيس الحكومة العمالية خطاباً موجهاً إلى ويزمان فى فبراير سنة ١٩٣١ يؤكد فيه حق اليهود فى فلسطين . وقد استخدمت الحكومة البريطانية فى تراجعها عن سياستها أسلوباً ماكراً مخادعاً بأن حاولت أن تنفذ سياسة الصهيونية دون أن تثير مخاوف العرب وأن تقيم مظهراً باطنه السم الزعاف للقضية العربية . إذ أنها قامت « بإعادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتعيين مندوب سام هو السير آرثر واتشوب "Sir Arthur Wauchope" الذى أحرز اليهود فى عهده تقدماً عظيما فى فلسطين » .

ويهمنا أن نحلل هنا فى إيجاز تفاعل الصهيونية والاستعمار فى هذا الموقف لتظهر السخرية الواضحة من ادعاءات بالفور عن عدالة بريطانيا وعصبة الأمم فى رعاية حقوق عرب فلسطين . فما أن أعلن باسفيلد تحديد مفهوم وعد بالفور فى سنة ١٩٣٠ حتى عبأت الصهيونية سياطها لتلهب بها جلد الاستعمار ممثلا فى حكومة ماكدونالد وتعيده إلى حظيرته .

فأولا : ثار فريق صهيونى من حزب العمال نفسه وأجبروا رئيس الحكومة على أن يدعو الوكالة اليهودية للتفاوض مع لجنة وزارية برئاسة آرثر هندرسون للوصول إلى قرار بحفظ وجه الحكومة وينفذ فى الوقت نفسه مطالب الصهيونية .

وثانياً : هاجم الصهيونيون من المحافظين داخل بريطانيا وخارجها سياسة ماكدونالد بعنف لم يتوقعه وكان على رأس المهاجمين « ستانلى بولدوين وسير اوستين تشامبرلين وليوبولد آمرى وجنرال سمطس وسير جون سيمون » .

وثالثاً : نسقت الصهيونية الأمريكية هجوماً مع الصهيونية الإنجليزية فى إثارة الولايات المتحدة على حكومة حزب العمال البريطانى .

ورابعاً : انتقدت لجنة الانتداب الدائمة فى جنيف مسلك حكومة الانتداب انتقاداً عنيفاً واتهمت إدارتها لفلسطين بالإهمال فى حق اليهود . وبذلك استطاعت الصهيونية أن تسخر البرلمان البريطانى والأحزاب البريطانية من محافظين وعمال وأحرار وأن تسخر عصبة الأمم والنفوذ الصهيونى الدولى فى إقرار العدوان الذى ارتبط باسم بالفور على حقوق العرب واستمراره وصيانته من كل تغيير أو تبديل بل وفى تأكيده وتقويته مع مرور الأيام وتطور الأحداث وانقلبت بين يوم وليلة أركان العداة أركاناً للظلم بفعل التأثير السحرى للصهيونية فى العالم الغربى .

ولقد كان أسلوب التأثير الصهيونى فى السياسة الاستعمارية بفلسطين سنة ١٩٣٠ هو الأسلوب التقليدى الذى اتبعه اليهود طيلة عهد الانتداب .

فالمسرحية التى لعبتها حكومة العمال فى سنة ١٩٣٠ بإصدارها الكتاب الأبيض لباسفيلد لعبتها كذلك حكومة المحافظين فى سنة ١٩٣٩ بإصدارها كتاباً أبيض يتضمن سياسة الحد من حرية اليهود فى الهجرة إلى فلسطين وحريتهم فى شراء الأرض من الأهلين والإبقاء عليهم فى حالة أقاية بالنسبة للأكثرية العربية ولكن ما كاد مستر تشامبرلين يعلن هذه السياسة ترضية للعرب بعد ما أصاب ثورتهم من تدمير على يد الإنجليز وضماناً لسكينتهم بعد أن ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية حتى أثار الصهيونيون المعارضة العمالية فى وجهه مثلما أثاروا فى سنة ١٩٣٠ معارضة المحافظين فى وجه المستر رمزى ماكدونالد وهو رئيس لحكومة العمال . ويكاد الدور السياسى يتكرر نصا وروحاً . فالحكومة البريطانية تعلن سياسة فى الظاهر ولكنها تعمل على تنفيذ نقيضها فى الباطن حتى ينخدع العرب ويركنوا للهدوء فى وقت أزمة الاستعمار أثناء الحرب . فيستمر تدفق الهجرة اليهودية غير المشروعة من الناحية العملية ويتعاون البريطانيون والصهيونيون تعاونا مستتراً وظاهراً ، ويقرر مؤتمر حزب العمال السنوى فى سنة ١٩٤٤ « أنه ليس هنالك أمل أو معنى فى «وطن قومى يهودى» ما لم نكن مستعدين بأن نسمح لليهود إن أرادوا ، بأن يدخلوا هذا البلد الصغير فى أعداد تمكنهم من أن يصبحوا أكثرية » .

وهكذا إن كان عهد الانتداب البريطانى قد اتسم فى بعض مراحله بمحاولة العدول عن وعدهم لليهود بفلسطين فقد بقى دائماً من ناحية سياسته الإدارية والعسكرية وتنفيذه العملى لذلك الوعد حافظاً للعهد نحو الصهيونية

وعاملا على استكمال أركان دولتها . وقد أظهر الاستعمار إخلاصه للصهيونية من الناحية التنفيذية منذ أن عين هربرت صمويل أحد زعماء الصهيونية البريطانية أول مندوب سام فى فلسطين ليضع أسس الدولة اليهودية التى تخيلها هو وصورها فى مذكرة قدمها إلى آسكويث ("Asquith") فى يناير سنة ١٩١٥ ، إذ كتب عنه آسكويث يقول فى يومياته « لقد استلمت من هربرت صمويل مذكرة عنوانها مستقبل فلسطين ؟ وهو يقدم الحجج فى إسهاب وحماسة مؤيداً استيلاء بريطانيا على فلسطين وهى بلد مساحتها قدر مساحة ويلز وكثير منها جبال جرداء وجزء منها خلو من الماء. وهو يرى أننا قد نوطن فى هذا الإقليم غير المشجع حول ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوربيين وأن هذا المشروع له تأثير حسن على أولئك الذين يتركون خلفهم . وأن هذه المذكرة تكاد تشبه طبعة جديدة لرواية دزرائيلى « تانكريد » مستحدثة ومستكملة . وإنى لأعترف أنى غير مستعد لهذه الإضافة المقترحة إلى مسئولياتنا ولكنها توضيح عجيب لقول دزرائيلى المحبب إليه « أن العنصر هو كل شىء » حتى نجد هذا الفيض الشاعرى من ذهن هربرت صمويل المنهجى المنظم » . وأن هذا المبدأ فى الإدارة البريطانية ظل رمزا لطبيعتها وهدفها حتى نهاية الانتداب فحرصت الحكومات المتعاقبة على أن ترسل على رأس الإدارة فى فلسطين حاكماً موالياً للصهيونية منذ أن وكل أمر الانتداب عليها إلى بريطانيا فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٠ وتحولت الحكومة العسكرية إلى إدارة مدنية . فحرص الحكام البريطانيون المتتابعون على أن يضيفوا إلى البناء الذى وضع أساسه الحاكم الصهيونى

الأول هربرت صمويل حجراً حجراً حتى اكتمل تحت الرعاية البريطانية ونال تقدير الصهيونية وثناءها . ويخص كتاب الصهيونية بالتقدير حكاماً بريطانيين من غير اليهود مثل اللورد بلمر (Plumer) والسير آرثر وتشوب (Arthur Wauchope) واللورد جورت (Gort) .

ولقد قامت الحكومة البريطانية بإدارة فلسطين إدارة صهيونية الجو الملائم لنشأة دولة إسرائيل وتدعيم قواعدها فاستولى اليهود على المراكز الرئيسية للاقتصاد الفلسطيني الذى كان الوعى العربى غير متيقظ أو ناضج كما هى الحال الآن . ولم يقتصر الأمر على تمهيد البناء للصهيونية بل اشتمل على مهمة الهدم لمقومات الحياة العربية المستقلة . ويبدو هذا العمل المزدوج فى أهدافه إذا ما درسنا الموقف العسكرى لسكان فلسطين من عرب ويهود . فالإنجليز عملوا على أن يجعلوا من اليهود قوة عسكرية فعالة وأن يقضوا على قوة العرب دون رحمة أو شفقة . واستخدموا فى تنفيذ هذه الخطة السياسية البريطانية ذات الوجهين . فعلى حين أنهم حرموا على اليهود التسلح سمحوا لهم بتهريب الأسلحة وشرائها بطريقة غير شرعية بل إنهم تعاونوا مع « الهاجاناه » وهى قوة اليهود العسكرية فى قمع ثورة العرب بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . وامتد هذا التعاون بين الإنجليز وبين اليهود من الناحية العسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية وبلغ بهم عدم الاكتراث بالعدل والقانون أن الإنجليز تعاونوا مع الإرهابيين اليهود من جماعة « أيرجون تسفاى ايومى » وجماعة « شتيرن » . وكانت المحاكم الإنجليزية تحكم بالسجن على الإرهابيين اليهود ثم يفرج عنهم خلسة ليستخدموا فى قمع ثورة

رشيد عالى فى العراق وغير ذلك من الأعمال العسكرية فى الشرق الأوسط . وتناقضت بذلك السياسة البريطانية بين ناحيتها النظرية والتطبيقية . ويصف كوستلر ذلك بقوله :

« وهكذا من الناحية النظرية ، لم يكن يسمح لليهود بأن يملكوا أية أسلحة ، سوى بنادق قديمة صرفت لهم بعد اضطرابات سنة ١٩٢١ للمستعمرات المنعزلة » . ويتبع ذلك بقوله : ولكن احترام اليهود لنص القانون معناه الانتحار كما أثبتت ذلك الحوادث فيما بعد . وكانت وسيلتهم الوحيدة لإقرار الأمن تقوم على تهريب الأسلحة وإخفائها فى المستعمرات . وكانت السلطات على علم بهذا . ولم تكتف بالسماح بهذا الإجراء ، بل إنها أحيانا أمدت الهاجاناه بأسلحة غير شرعية » . وبينما كان هذا التعاون قائما بين الإنجليز واليهود أثناء ثورة العرب من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ « كان يشنق العرب أو يحكم عليهم بالسجن لسنين عديدة إن ضبط عند أحدهم بندقية .

وأصبح العدل فى فلسطين وظيفة للموقف السياسى ، وفى الواقع كان مهزلة من المهازل » . وما أعلنت الحرب العالمية الثانية حتى أخذ اليهود فى فلسطين يحصلون بطريق التهريب والتجارة فى سوق الأسلحة السوداء على مقادير لا تحصى من أسلحة الحلفاء وذلك تحت إشراف دافيد بن جوريون (David Ben Gurion) رئيس الوكالة اليهودية « وعصابته السرية الواسعة الاشتغال بتجارة الأسلحة » . ولقد أدركت السلطات العسكرية البريطانية آخر الأمر مدى ما سرقه اليهود من الأسلحة فوصفت ذلك العمل الصهيونى بأنه سرطان فى المجهود الحربى فى الشرق الأوسط » . ويعلق كوستلر

الصهيونى على هذا الاتهام البريطانى للصهيونية فى فلسطين أثناء الحرب بقوله الساخر من نظام الحكم البريطانى فى عهد الانتداب بقوله :

« أما أن الهاجاناه كانت تشترى أسلحة بطريقة غير شرعية كما كانت تدخل إلى فلسطين لاجئين من اليهود بطريقة غير شرعية ، فقد كان ذلك حقيقة معروفة للإدارة البريطانية مدة ربع قرن ، وكان البريطانيون يسمحون بهذا أحياناً ويعاقبون عليها أحيانا ، ولكنها من المؤكد لم تكن نبأ جديدا ».

وما أن توفرت للصهيونية فى داخل فلسطين كل هذه القوى ، حتى صممت فى النهاية على إخراج بريطانيا نفسها من الوطن القومى لليهود الذى وعدتهم به وهيأته لهم فى القرن العشرين بعد أن وعدهم به « يهوه » فى العهد القديم . فالاستعمار الصهيونى رغم تحالفه الطبيعى مع الاستعمار البريطانى قرر التفرد بالسيادة فى فلسطين ، وحرمان بريطانيا من دور الوصاية فى أرض كانت تطمح إلى دوام سيادتها فيها عن طريق « فرق تسد» والقيام بدور الحكم بين العرب واليهود . ولجأت الصهيونية فى تحقيق هذا إلى الهجوم على الإدارة البريطانية من الداخل والخارج . فالإرهابيون الصهيونيون قوضوا الأمن فى فلسطين بما توفر لديهم من أسلحة بريطانية وتدريب بريطانى فى الإرهاب على أيدى ضباط بريطانيين اشتهر من بينهم الكابتن ونجت (Wingate) الذى اعتنق الصهيونية وسماه اليهود « لورنس العبريين » (Lawrence of the Hebrews) وبلغ بهم الاستهتار بسلطة الإدارة البريطانية أن كانوا يشنقون رجال الأمن البريطانيين على قارعة الطريق كنتيجة للسياسة المسمومة التى جمعت بين اللصين فى دار ليست

بدارهم . ولقد أخبر بن جوريون المندوب السامى البريطانى فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٥ أن الوكالة اليهودية فى فلسطين لن تستطيع أن تساعد فى وقف هذا الإرهاب . وأما هجوم الصهيونية فى الخارج على الإدارة البريطانية لفلسطين فقد اعتمد أول ما اعتمد على نفوذها فى الولايات المتحدة .
« فى ١١ مايو سنة ١٩٤٢ . وافقت المنظمة الصهيونية الأمريكية المجتمعة فى نيويورك على البرنامج المسمى ببرنامج « بلتمور » (Biltmore) والمقدم إليها بواسطة دافيد بن جوريون(David Ben Gurion)رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية . ولقد دعا برنامج بلتمور إلى (١) تأسيس دولة يهودية تشمل جميع فلسطين (٢) خلق جيش يهودى (٣) إلغاء الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ والهجرة غير المحدودة إلى فلسطين ، التى لا تدار بواسطة البريطانيين وإنما بواسطة الوكالة اليهودية » . وأخذ الصهيونيون ينشرون دعوتهم بين رجال الحكم فى أمريكا سواء من الهيئة التنفيذية أو التشريعية ويستخدمون فى ذلك ما ثم هنالك من وسائل القوة والإغراء حتى أتى الوقت الذى كان فيه « ترومان » رئيس جمهورية الولايات المتحدة صهيونيا أكثر من الصهيونيين اليهود . وأصبحت جهود الصهيونية بهذه السياسة فى الحرب العالمية الثانية مقرونة باسم بن جوريون الذى اتجه إلى أمريكا لتحقيق الدولة الصهيونية واتخاذ الإرهاب وسيلة لتحطيم ولاية بريطانيا على فلسطين بعد أن أشرفت على تربية الوليد غير الشرعى فى المرحلة التى ارتبطت باسم ويزمان أثناء الحرب العالمية الأولى وما بين الحربين . فحقق ترومان للصهيونية حلمها فى فلسطين بضغط السياسة الأمريكية

فى المعترك الدولى مدفوعاً بالرغبة فى تفادى هجرة يهود أكثر إلى الولايات المتحدة وعدم الاستعداد لفتح أبوابها للمساهمة فى حل مشكلة المشردين منهم بسبب اضطهاد هتلر لهم كما أعلن ذلك أرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا ، وبنفوذ اليهود على مسرح السياسة الأمريكية عامة وتمويلهم لخزائن حزب ترومان الديمقراطى خاصة كما أعلن ذلك « برنز » وبما يدعيه ترومان نفسه من تحرك عواطفه لإنقاذ يهود أوربا غير عابئ بإنسانية العرب وبتوطين اللاجئين اليهود فى منازلهم وتحويلهم إلى لاجئين على حدود « إسرائيل » .

التحالف الطبيعى بين دول العدوان الثلاثى :

ولكن إن كان الاستعمار البريطانى والصهيونية قد اختلفا فى المرحلة الأخيرة من استعمارهما المشترك لفلسطين على مدى اقتسامهما السلطة فيها ، فإن ذلك الاختلاف لم يدم طويلا لاشتراكهما الجوهرى فى المصلحة فى الشرق الأوسط . ويوضح الكاتب الصهيونى كوستلر وحدة المصلحة الأساسية لا بين الاستعمار البريطانى والصهيونى وحسب بل بينهما وبين الاستعمار الفرنسى كذلك إذ أن ثلاثتهما تشترك فى مقابلة الخطر الناجم عن القومية العربية الثائرة فى وجهها جميعاً والمهددة لها بالجلاء عن الأوطان العربية والحرمان من ثمرات استغلالها . فهو يضرب المثل بمنشور من منشورات السوريين ضد الاستعمار الفرنسى فى سنة ١٩٤٥ على أنه مثال لما يتردد فى أرجاء العروبة من حقد لا على الفرنسيين وحدهم وإنما على الإنجليز واليهود كذلك . ونص هذا المنشور المترجم هو :

« إذا أردت أن تتجنب نكبات أكثر مما لقيت ، وإذا كان لديك قلب عربى نبيل بين جوانحك ودم عربى زكى فى شرايينك وإذا كنت تواقاً لأن تقوم بواجبك نحو بلدك ، فعليك إذاً أن تفعل ما يأتى :

لا « بنجور » أو « بنسوار » أو « أوروفوار » أو « باردون » بعد اليوم . ولا صحف فرنسية أو مجلات فرنسية أو ثقافة فرنسية بعد اليوم . ولا بضائع فرنسية بعد اليوم » .

ويستطرد كوستلر قائلا « إننا لو أحللنا مكان كلمة « فرنسية » كلمتى « إنجليزية » أو « يهودية » حسب الحالة ، فإننا ندرك الجو العام للقومية العربية » ويفسر هذا الشعور العدائى للقومية العربية « بأنه التعبير الطبيعى للرغبة فى الاستقلال وأنه اتجاه الإسلام التقليدى المعادى لأوربا واستعمارها للبلاد العربية فى القرن الأخير

ولم يظهر هذا التحالف الطبيعى الجوهرى بين هذه الدول الثلاث المستعمرة للبلاد العربية فى الشرق الأوسط والتى أشار إليه كوستلر منذ بضع سنين كما ظهر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ حين دبرت ، إنجلترا وفرنسا وإسرائيل عدوانهما الغادر على مصر للقضاء على القومية العربية وعلى مركز قيادتها وإلهامها ويقظتها فى عهد الثورة . ففرنسا تذهب إلى أن تعليمات الثورة فى الجزائر وأسلحتها إنما تأتى من الخارج « فهى تدار من القاهرة بواسطة محمد بن بلا ولجنة إدارته تحت إشراف الرئيس المصرى جمال عبد الناصر الذى يشير إليه الإرهابيون بأنه الأخ الأكبر » كما تؤكد أن سقوط « أفريقيا الفرنسية » هو سقوط « قوة فرنسا » نفسها . ومن ثم فإن

فرنسا تستنجد بحليفاتها فى ميثاق الأطلنطى لتضع حداً لمركز التحرير العربى الذى يتخذ من ميدانه الرقعة الواسعة بين الخليج الفارسى والمحيط الأطلسى ، وترى أن السبيل إلى ذلك هو عودة الاستعمار إلى القاهرة لتأمين بقائه واستمراره فى مركز الدولة العربية وأطرافها على السواء . كما أن إنجلترا أحست بأن يقظة العرب المتدفقة من مصر والمتجاوبة بين المملكة العربية السعودية والأردن وسوريا إلى درجه الارتباط فى جبهة عسكرية والتى تجد صدى ثوريا فى نفوس شعوب العرب جميعا ، قد أصبحت تهديداً متجسما لمصالحهم الاستغلالية فى بترول الشرق الأوسط ومواده الأولية بل وفى مراكزه الاستراتيجية . ولقد أدركت إنجلترا كذلك أن القومية العربية بقيادتها فى القاهرة قد حالت دون بسط نفوذها المرتجى من حلف بغداد واستكمال حلقة المحالفات التى وضع أسسها تشرشل بعد « يالتا » مجدداً حربه على الثورة الروسية فى سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، بعقده ميثاق الأمن الأطلنطى الذى وإن وقعه أرنست بيفين فقد كان المنفذ الأمين لسياسة تشرشل الخارجية ، وبعقد ميثاق الاتحاد الأوربى هادفاً إلى إحياء ألمانيا الغربية على وجه الخصوص . وظهر لها أن إغلاق مصر للباب المفتوح فى حلف بغداد من ناحية البلاد العربية هو إضعاف للقوات المحاصرة لروسيا والتى تقصد إلى منعها من التسرب إلى الشرق الأوسط .أما إسرائيل فهى تعلن باستمرار أن اتحاد العرب قضاء عليها ومن ثم كان ذعرها منذ أن عقدت مصر صفقة الأسلحة التشيكية وأخذت تعقد المواثيق والاتفاقات مع سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن لتدعيم الوحدة العربية .

وفوق ذلك فإن إسرائيل المغامرة المقامرة التى قامت على الاستعمار تؤكد فى كل مناسبة أن حياتها إنما تتنافى مع وحدة العرب لأن منطق وجودها فى الشرق العربى يقتضى أن تقوم على أنقاض العرب بين « النيل والفرات » لا على التعاون كما أشاع الصهيونيون أول الأمر ليخدعوا العالم وليطأطئوا الرأس ليغزوا » .

حرب « أعصاب » :

ولقد جمعت الأحقاد والمصالح المشتركة بين حلفاء الغدر الثلاثة فأعلنوا على مصر حربين — حرب « أعصاب » وحربا عسكرية . وانفردت إنجلترا وفرنسا بالقيام بالحرب الأولى مدة ثلاثة أشهر بعد تأميم مصر لشركة قناة السويس جاءتا بعدها إلى بور سعيد الباسلة على ظهر « إسرائيل » — على حد تعبير جريدة التيمز اللندنية — فى غزو مصر برا وجوا وبحرا . وفى الواقع أن العدوان الثلاثى لا يمكن تقدير جرمه إلا إذا ناقشنا الأسس التى قامت عليها حرب « الأعصاب » التى مهدت للحرب الفعلية .

فلقد قرر الرئيس جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٦ ، وما أن أصدر هذا القرار حتى تجاوبت أصداؤه فى السياسة الدولية من شرقية وغربية ومحايدة ، ولم يصبح قراراً خاصا بممر مائى إقليمى ، بل أصبح فى الواقع قرار امتحان لطبيعة السياسة القومية والعالمية فى هذا العصر ، ومدى التفاعل بين فكرة السيادة التقليدية فى الدولة الحديثة وبين أسس التنظيم والعلاقات الدولية . ومنطق مصر فى هذا

الموضوع جلىّ واضح . كما أن منطق بريطانيا وفرنسا جلى واضح كذلك لكل من درس الحضارة الغربية ، وتتبع مقومات حياتها السياسية ومفاهيم نظمها المحلية والخارجية . وفى الصراع بين المنطقين ووجهتى النظر المصرية والغربية بشأن تأميم قناة السويس ، يدخل قرار الرئيس جمال عبد الناصر تاريخ النصف الثانى من القرن العشرين دخول الضوء الكاشف القوى لماهية الدولة واستقلالها ودورها على مسرح السياسة القومية والدولية .

موقف مصر القانونى :

وأن الأساس الذى تستند عليه مصر فى تأميمها لشركة قناة السويس هو سيادتها القومية ، وما تخوله لها تلك السيادة من حق فى التشريع داخل أراضيها وفق ما تقتضيه مصالحها العامة . وقد حرصت مصر على أن توضح هذا السند فى مذكرتها الإيضاحية لقانون التأميم المعروف بقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ لتبين أن شركة قناة السويس ما هى إلا شركة مصرية ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الشركات المصرية الأخرى التى ينظم القانون المصرى وجودها ، وأن تأميمها لا يعدو أن يكون تشريعا عاديا من التشريعات التى تصدرها الحكومة يوميا فى إدارتها لشئون البلاد . وذهبت مصر فى توضيح الأساس الذى اعتمدت عليه فى إجراء التأميم إلى التأكيد بأن هذا الحق وإن كانت تباشره مصر المستقلة فى سنة ١٩٥٦ إنما كلفته كذلك الفرمانات الخاصة بتأسيس الشركة فى عهد تبعية مصر للدولة العثمانية فى القرن الماضى . فلم يأت وقت مطلقا فى تاريخ الشركة سواء

عند ميلادها أو عند انتهائها كانت فيه دولية أو غير مصرية من ناحية اتصالها بالسلطة العامة التى تهبها الوجود والحياة .

مزاعم الاستعمار السياسية :

ولكن إيدن رئيس وزراء بريطانيا وموليه رئيس وزراء فرنسا ومن خلفهما جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا أنكروا على مصر حقها المطلق فى تأميم شركة قناة السويس وبالتالى حقها فى السيادة القومية ، وأخذوا فى أيديهم مهمة تفسير وظيفة الدولة وحدود سلطانها . ويهمنا أن نلخص أبرز الآراء من هذه الناحية فى الأقوال الآتية التى تبارى ساسة الغرب فى الإفضاء بها . فإيدن يذكر أن تأميم شركة قناة السويس هو فى الواقع وضع للقناة تحت سيطرة دولة واحدة لخدمة أغراض قومية قد تتعارض مع مصالح الدول المستخدمة لها خاصة دول غربى أوربا ، وتهدد بذلك رفاهيتها ومستوى معيشة أهلها . كما أعلن إيدن ومولية أن تأميم شركة القناة ما هو إلا عملية استيلاء واغتصاب من جانب مصر ، واعتداء صارخ على القانون الدولى . وأطلق سلوين لويد لخياله العنان عشية انعقاد مؤتمر لندن ، فى تصوير عمل واضح من أعمال السيادة القومية قامت به الحكومة المصرية . فقال إنه قرأ كتاب فلسفة الثورة الذى كتبه الرئيس جمال عبد الناصر ورأى فيه مرآة القومية المصرية وهى تتحول إلى إمبراطورية عربية ثم إلى إمبراطورية أفريقية آسيوية ثم إلى

إمبراطورية إسلامية تحت زعامة الرئيس جمال عبد الناصر وإنه قد آن الأوان لوضع حد للمطامع المصرية التى تهدد الحضارة الغربية . ثم جاء خطاب إيدن فى مجلس العموم البريطانى مردداً هذه الفكرة إذ يعلن أن إنجلترا لن تستطيع اتباع سياسة التهدئة كما اتبعتها سنة ١٩٣٠ مع هتلر ، وبمعنى آخر يحاول أن يربط فى ذهن الشعب البريطانى بين خطر هتلر وخطر جمال عبد الناصر ، وأن يوقظ العداوة الكامنة نحو هتلر والخوف من نتائج سياسته ويوجههما نحو جمال عبد الناصر . . . أما بينو ودلاس فقد عالجا مسألة السيادة القومية لمصر معالجة مباشرة . فقد ذهب بينو إلى أنه لامكان للسيادة القومية فى عصر الذرة ، وأنه لا داعى لأن تتورط مصر فى التمسك بمثل سياسة تغير مضمونها فى الوقت الحاضر . ولكن دلاس حاول أن يرضى مصر « بالشكل » وبريطانيا وفرنسا « بالموضوع » فقال إن مصر صاحبة السيادة على القنال ، ولكن ليس لها أن تمارس حقوق السيادة فى الانتفاع بها ، بل عليها أن تترك ذلك للدول الغربية المستخدمة لها . وفى إيجاز نرى أن ساسة الغرب يريدون أن يتهموا مصر بالوطنية المتعصبة الضيقة وبالنزعات الاستعمارية العدوانية وبتهديد رخاء الغرب ورفاهية شعوبه وبالتخلف فى فهم العلاقات الدولية ، وإزاء هذا التصور من جانبهم يعتزمون أن يفرضوا على مصر بالقوة حدود السيادة القومية ، وأن يجعلوا السلطة فى القاهرة خاضعة لسلطة فوق السلطة القومية تنبثق من لندن وباريس وواشنطون .

العنصرية الغربية :

ولا شك أن هذه الاتهامات التي وجهها ساسة الغرب إلى مصر وإلى رئيس جمهوريتها ما هي إلا أباطيل وأضاليل كشف خطأها كل صاحب عقل من الأحرار الحقيقيين فى العالم حتى فى إنجلترا نفسها ولكنهم يسوقونها ويرددونها فى صور مختلفة وفى كل مناسبة داخلية أو خارجية لأنهم قوم ماكرون مغرضون يعلمون أن الرأى العام لا يسير على قواعد علمية فى التفكير والاعتقاد ، وأنه كثيراً ما يضلل عن طريق العواطف والمصالح والأحقاد . وهم بهذه الدعايات الكاذبة المزعومة يبتغون خلق الضباب الفكرى والعاطفى الذى ينفذون تحت أستاره إلى تحقيق مآربهم المرسومة الواضحة فى قسوة و برود متوحش مفترس. وفى الواقع أن اجتماع فرنسا وانجلترا على تدبير العدوان السياسى والفكرى والاقتصادى والعسكرى على مصر لا يمكن تفسيره إلا بظاهرة واحدة لها جذورها العميقة فى تاريخ تلك البلاد وفى تفكير أهلها من الزعماء والعامة على وجه سواء . فنحن شعب نشأ وعاش فى وادي النيل ولا نزال نعيش فى هذا الوادى من القارة الأفريقية. أما الإنجليز والفرنسيون فهم يعيشون فى أوربا ، ولكنهم ينتمون إلى مايسمونه العنصر الأوربى ـ الشمالى . وأن هذه العنصرية وحدها هى التى تجمع بين هذه الشعوب وتغريها بالعدوان على شعب أفريقى يبيح تاريخهم وعرفهم دماءه وأمواله مثلما يبيح دماء غير الأوربى وما له فى جميع أرجاء العالم . فالسر فى هذه الحملة المتعددة الجوانب على مصر ليس وطنية جمال

عبد الناصر المتعصبة الاستعمارية كما يدعون . وإنما هى وطنية الغرب العنصرية الاستعمارية العسكرية . فلقد رأوا أن مصر التى كانوا يحكمونها ويستغلون أهلها ومواردها فى البر والبحر والجو قد أخذ أهلها يرفعون رءوسهم فى ميدان السياسة القريب والبعيد فاستكثروا عليها هذا الاستقلال الشخصى الذى صاحب الاستقلال السياسى وحاول ألا يقتصر عمله الإيجابى على رقعة مصر الجغرافية ، وإنما عمل على أن يمتد مع صلاتها الروحية والمادية فى أفريقيا وآسيا بل وفى جنبات العالم بأسره . فأحسوا ثم أعلنوا أن نهضة هذا الشعب وحيويته أن تركتا للبزوغ مرة جديدة والإلهام فى هذه المنطقة من العالم ستهددان حضارة الغرب ومقوماتها التى تنحصر فى الأنانية والفخار والعنصرية المتفوقة التى لا تسمن ولا تزكو إلا بالعيش على حساب غيرهم من البشر .

ومن الطريف أن فرنسا التى تقود اليوم حركة الاستعمار الغربى المشترك الجديد لمصر هى الدولة ، التى أعطت العالم فكرة العنصرية وتفوق الأجناس وتدرجهم فى طبقات بعضها فوق بعض . فى منتصف القرن الماضى أعلن دى جوبينو الدبلوماسى الفرنسى عن نظرية فى تفوق العنصر الأوربى الشمالى على سائر الأجناس وحقه فى السيطرة عليها . فليست ألمانيا وليس هتلر هو مبدع فكرة التفوق العنصرى وما تستتبعه هذه الفكرة من دعوة إلى أن العنصر الأبيض هو خليفة الله فى الأرض وحامل لواء المدنية بين الأجناس الملونة سواء كان لونها أسود أو أسمر أو أصفر أو غير ذلك .

فعن الفرنسي دى جوبينو أخذ الألمان والبريطانيون وغيرهم أسس الاستعمار العنصري الغربى ، وتبارى كتابهم ومفكروهم فى التغنى بهذا المذهب الجديد فى تنظيم الحكم العالمى . ونجد مدارس قوية تعلم هذا الإنجيل فى البلاد الغربية . ولعل الجبهة الثنائية من فرنسا وبريطانيا فى موقفها من مسألة قناة السويس المصرية ، ومن السيادة القومية المصرية هى أروع نتاج لهذا الاتحاد الأصيل فى ضمير العنصر الأوربى الشمالى نحو أمة غير أوربية . ولقد كان من الأجدر أن يتذكر ساسة الغرب هذه الحقيقة وأن يقروا أمام العالم كما يقرون أمام أنفسهم أنهم هم هتلر بل هم أساتذة هتلر ومعلموه وليس جمال عبد الناصر الذى يقود أمة إلى مجرد الوجود لا إلى ما بعد تحقيق الوجود من اعتداء وتوسع على حساب غيرها من الموجودات .

القومية العربية :

فمن من الجانبين قد أساء فهم فكرة نظرية القومية والسيادة القومية ؟ أننا حقا فى مصر فى هذه المرحلة من تاريخنا نؤمن بالقومية وبالقومية العربية التى ضمناها دستورنا فى مستهل سنة ١٩٥٦ ، ونؤمن باتخاذ هذه القومية مبدأ للوحدة الداخلية والتماسك والتنظيم العمالى فى الوقت نفسه . ولكننا لسنا وحدنا الذين نؤمن بالقومية كأساس للدولة المعاصرة بل نشترك فى ذلك مع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والهند والصين الشعبية وغيرها فى هذا الاعتقاد السياسى .

ولسنا وحدنا الذين ابتدعنا القومية فى هذا العالم المعاصر وإن كنا من أوائل الأقوام الذين علموا الناس منذ آلاف السنين كيف يعيشون فى جماعات سياسية متعاونة متماسكة برباط الانتساب إلى شعب واحد منفرد بين الشعوب بخصائص متشابهة وشخصية واعية . وإنما يحق لنا أن نفخر بأن قوميتنا ليست من طراز قومية إنجلترا وفرنسا العنصرية الاستعمارية التى تقوم على التمييز بين الشعوب وعلى الانفراد بالامتياز والاستغلال . فنحن قد أضفنا إلى ما ورثناه من الإحساس القومى الفرعونى بالتماسك السياسى صفة التسامح التى أسهم بها العرب فى حضارة الإنسانية جمعاء ، والتى شهد كتاب العالم من جميع الملل والنحل بفضل العرب فيها على الغرب . فى ظل حضارة العرب عاش أصحاب الأديان المختلفة والأجناس المتباينة جنباً إلى جنب دون أن يكون لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى أى بالتزام القانون . ونحن فى قوميتنا لا نصدر عن مبدأ القوة فى تحقيقها ، وإنما نوقظ عواملها ونترك لهذه العوامل أن تعمل عملا منسجما طبيعيا فى وضع البناء السياسى لهذه الوحدة الثقافية . وبعبارة أخرى نترك لقوميتنا الثقافية أن تمهد السبيل لقوميتنا السياسية . واحتواء القومية العربية فى إطار الدولة العربية المتحدة إن لم يكن فى اليوم القريب . ففى الغد البعيد . وهذا الغد البعيد هو الذى يحاول الغرب العنصرى المستعمر أن يحول بيننا وبينه . فهم فى خوف لا من حاضرنا وإنما هم فى خوف من مستقبلنا الذى يريدون قطعه قبل تحقق إمكانياته الغنية بالموارد المحسوسة وغير المحسوسة .

الاقتصاد والاستعمار :

ولنتساءل هل للغرب أن يخشى القومية العربية وأن يخشى جمال عبد الناصر الذى يقضى ليله ونهاره فى تثبيت دعائم هذه القومية ؟ وهل القومية العربية تهدد شعوب أوربا الغربية بانخفاض مستوى معيشتها ، وتهددها فى أرزاقها وأقواتها كما يدعى إيدن وموليه ولويد وبينو ؟ إن هذا القول صحيح وخاطئ إذا نظرنا إليه من وجهات نظر مختلفة . إنه صحيح من وجهة نظر الغرب لأنه يريد أن يبنى اقتصادياته فى المستقبل كما بناها فى الماضى على استغلال تأخر الشعوب صاحبة المواد الخام التى تعتمد عليها المؤسسات الصناعية والتجارية والمالية فى الغرب ، واستغلال تأخر هذه الشعوب الآسيوية الأفريقية على وجه الخصوص فى تقديم الأسواق المربحة إلى جوار الموارد الأصلية لصناعة الغرب وتجارته . فالدول الرأسمالية الغربية لا تنظر إلى هذه الشعوب نظرة الأنداد فى محيط الإنسانية ، وإنما تنظر إليها نظرتها إلى الأدوات الحية لخدمة الأوربى المتمدين كما عرف أرسطو الرقيق بالنسبة للأحرار المواطنين فى دولة المدينة اليونانية القديمة والتى اتخذها عنه أحفاد أوربا المستعمرون وبنوا على أساسها فهمهم للقانون الدولى الذى لا يعرف لغير الأوربى بحق فى ميزان العدالة العالمية . ولكن الخطأ الذى لا يستطيع الغرب إدراكه فى هذه الحجة هو أن العالم قد تغير دون إنكار تغيره وتجاهل ذلك التغيير لن يغنى فى ضمان رفاهية الشعوب الغربية فالعالم الآن ملىء بالأفكار والحركات التحريرية التى تؤكد المساواة لا بين الأفراد

وحسب وإنما بين الشعوب كذلك ، ولن يستطيع الغرب أن يواصل معاملة الشعوب غير الأوربية على أساس تجربة الماضي السحيق المغمور فى ظلمات من الجهل وعدم الوعى والنضج السياسى . وليس للغرب أن ينادى كما نادى من قبل بأن الرجل الأوربى يحتاج إلى مستوى من العيش أرقى من مستوى العيش الذى يحتاجه غير الأوربى . فانخفاض المعيشة بين الشعوب الآسيوية الأفريقية من أثر الظروف التاريخية التى أحاطت بهذه الشعوب ليس حكما مطلقا عليها بأن تموت ليعيش إيدن ومولية على جثث الجائعين من أبناء هذه البلاد ، كما بين ذلك هوبسون الإنجليزى فى تحليله للنظام الاستعمارى فى أول هذا القرن ، وكما بينه لنين بعد ذلك . ومن العجيب أنه قد ظهر بين الاشتراكيين البريطانيين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية دعوة إلى المحافظة على مستوى المعيشة فى بريطانيا بتشجيع الازدهار فى البلاد المستعمرة التى تتعامل معها لتجد الصناعة البريطانية أسواقاً فى سعة الاستهلاك وازدياده بين أفراد الشعوب . ولكن يبدو أن الرأسمالية البريطانية قد قضت على هذه النزعة الاشتراكية واستأنفت مزاولتها لطرقها التقليدية فى الاستغلال والكسب غير الحلال . وما صياح إيدن ومولييه إلا صياح هذه الرأسمالية المتطرفة التى تعبئ قوى الجماهير فى بلادها ضد النظرة الصحيحة إلى السياسة الدولية ووجوب قيامها على التعاون والتعاطف فى الميادين الاقتصادية وغير الاقتصادية . ومن ثم كان التعارض فى موقف حزب العمال الاشتراكى وحزب المحافظين الرأسمالى على مسرح السياسة البريطانية فى أزمة قناة السويس . فليس المحافظون بأكثر وطنية

من العمال ، وإنما هو اختلاف فى فهم الوطنية الحقة التى تضمن فعلا رفاهية الغرب . كما أن المحافظين والعمال سواء فى إيمانهم بالاستعمار كوسيلة من وسائل بريطانيا للحياة وذلك لاعتماد الشعب على الخارج وعجزه عن الاكتفاء الذاتى إلى أي حد من الحدود المعقولة . ولكن العمال يرون أن مصالح بريطانيا المشروعة لا تجد تهديداً حقيقيا من إجراء الرئيس جمال عبد الناصر الذي لا يفتأ يقرر فى كل مناسبة أنه لا تعارض بين مصالح بريطانيا المشروعة وبين مصالح العرب ، وأن العرب ليسوا أعداء التعاون الدولى فى نطاق الحياد الإيجابى بل هم أنصاره ودعاة إرساء قواعده .

السيادة القومية الجديدة :

وأن كل ساسة الغرب يتهموننا بالتطرف فى عاطفتنا القومية ، وبخطر هذه النزعة على رفاهية دول أوربا الغربية إذا ما ترك لها العنان فى إدارة القناة باسم الدولة المصرية ، فإنهم كذلك يتهموننا بعدم الفهم لماهية السيادة القومية فى العصر الحاضر ، وبتخطى الحدود التى كان من الواجب علينا أن نعمل داخلها فى نطاق السياسة الدولية . ولذلك ينكر بينو قيام نظرية السيادة القومية فيما أسماه عصر الذرة . ويقصد بذلك أن أية دولة كبيرة من الدول المقتنية للذرة تستطيع فى لمح البصر دون سابق إنذار أو استعداد أن تخضع بسلطانها الدولة الصغيرة المجردة من هذا السلاح . ومن ثم فليس لنا فى رأى بينو أن نعتمد فى ممارستنا لحقوق السيادة أن نفهم بها الحقوق

التقليدية من سلطة عليا كاملة لا تتجزأ ولا يتنازل عنها ، وإنما يحسن بنا أن نفهم السيادة القومية الجديدة بأن نعيش فى كنف سيادة دولة كبيرة هى التى تشاء فنشاء وتريد فنريد . وحاول دالاس أن يضمن هذا المعنى فى مشروعه بمؤتمر لندن إذ يعترف بأن مصر صاحبة السيادة على القناة ولكنها تتنازل عن مزاولة هذا الحق للدول المستخدمة لها خاصة الدول الغربية . ثم جاء المشروع الثلاثى لتأليف اتحاد لإدارة القناة من الدول الرئيسية المستخدمة لها بعد فشل لجنة منزيس مؤكداً للنظرية عينها ، فقد أقامت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أنفسها موضع صاحب السيادة الدولية التى تعلو على السيادة القومية . وليس هذا الإجراء فى الواقع من قبل أمريكا وبريطانيا وفرنسا أمراً جديداً مستحدثاً فى هذه الأيام ، وإنما هو الواقع المطبق فى أكثر من دولة من الدول التى رأينا جميعا كيف تسوقها أمريكا إلى مؤتمر لندن لتؤيد مشروع دالاس ولتنقض ما سبق أن وعدت به مصر من تأييد فى مسألة قناة السويس . فمن الدول الثمانى عشر التى جاءت بلجنة منزيس باسمها إلى القاهرة لتعرض قرارات مؤتمر لندن على الرئيس جمال عبد الناصر ، دول لا تباشر أكثر من السيادة التى تفضل بينو ودالاس بوصف معالمها لنا . ولقد بلغ الغرب فى هذه الدول ما بلغ من سلطان أعلى باسم المساعدات المالية وغير المالية ، وباسم الأحلاف العسكرية وغير العسكرية ، التى جعلت منها دولا تابعة وإن كانت فى العرف الدبلوماسى دولا مستقلة ذات سيادة . ويحق إذن فى هذا المعنى أن يتهمنا الغرب بأننا لا نعيش فى الزمن المعاصر بروح العصر ،

لأننا ننادى بالحياد الإيجابى وبالاستقلال والسيادة وبالعمل وفق الإدارة الحرة المختارة التى تصدر عن مصالحنا فى الوقت المناسب ، بل تجاوزنا مرحلة المناداة إلى مرحلة تنفيذ هذه النظرية فعلا فى معارضتنا للأحلاف العسكرية خاصة حلف بغداد وفى انضمامنا إلى مؤتمر باندونج الذى ضم شعوب آسيا وأفريقيا الظامئة إلى السلام والتعايش السامى فى جو من الحياد الإيجابى بعد ما لاقت من آلام الاستعمار ، وكذلك فى التعامل مع الكتلة الشرقية والكتلة الغربية دون انحياز إلى أى الكتلتين انحيازاً يفقدنا شخصيتنا المعنوية المختارة . ومن المؤسف أن الغرب لا يدرك صدق موقفنا المنبعث عن تجربتنا مع الاستعمار البريطانى الفرنسى فى الشرق العربى . وكيف يستطيع أن يقدر تجارب الشعوب وتطورها الحقيقى وقد أعمته مصالحه الاستعمارية فى ثوبها الجديد عن أن يرى الأسس الصالحة للتنظيم الدولى من رضى الشعوب وكرامتها وحريتها فلم يجد أساسا للعلاقات الدولية سوى التبعية ودوائر النفوذ فى الواقع أن التهديدات العسكرية والعقوبات الاقتصادية والحملات المغرضة التى شنها علينا الغرب فى الثلاثة أشهر التى تلت ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ قد اتخذت من تأميم شركة قناة السويس فرصة للتعبير عن حقدها على مصر التى صممت على أن تكون من دول العامل الثالث فى السياسة الدولية .

الخطر الأجنبى وأثره فى الوعى القومى :

ولكن هل كان فى مقدور هذه الإجراءات التهديدية لاستقلالنا

وهذه المؤامرات السافرة لأخذ مقاليد بلادنا من أيدينا أن تعطل قوميتنا عن الانبثاق الطبيعى وعن التعبير المتسق مع ظروفنا التاريخية وآمالنا فى المستقبل؟ إن الغرب يخطئ التقدير إن هو ظن أن الخطر الذى يهدد الشعوب قد يقتل روح القومية أو يحولها نحو الولاء للدول صاحبة القنبلة الذرية كما يقول بينو . فالخطر من شأنه أن يدفع بالناس إلى التضامن والتماسك وأن يبعث فيهم الوعى البصير المدرك وأن يجعلهم يستيقظون ويفكرون فى مخارج قد تكون فى وجهة نقيض ما يرسمه المستعمرون . ويبدو أن الولايات المتحدة لا تعطى لإنجلترا وفرنسا من تجربتها فى القومية الأمريكية ما تعطيهم إياه من مساعدات مالية وعسكرية . فجيفرسون رئيس الجمهورية الأمريكية فى أوائل القرن الماضى يخبرنا فى مذكراته عن الثورة الأمريكية أن الباعث إلى الاتحاد والتصميم على المقاومة بين المستعمرات الأمريكية كان غباء الملك جورج الثالث ووزارة المحافظين الرجعية فى ذلك الوقت التى حاولت أن تنفذ سياسة القوة والعنف والإكراه مع الأمريكيين ، فما كان من الشعور بالخطر إلا أن جعل كل أمريكى يستقيم فى جلسته وأن يفكر تفكيراً واقعيا فى التعاون مع مواطنيه والالتحام معهم فى التخلص نهائيا من حكم العدو الغاشم . فالولاء لا يمكن أن يصدر عن القهر . وأن أزمة قناة السويس ستقوم فى تاريخ القومية العربية مذكراً دائماً للشعوب العربية بضرورة تحويل هذا الشعور القومى المتجاوب بين المحيط الهندى والمحيط الأطلسى إلى الأساس الذى يعتمد عليه فى بناء الدولة الجديدة . ولن يكون هذا فى المستقبل وحسب ، بل إن أثر أزمة قناة السويس قد حقق

بالفعل هذه الوحدة فى الشعور بين جماهير العرب ، إذ كانت أشبه بالصدمة الكهربائية التى أذكت الإحساس بالذات أمام الخطر الاستعمارى المنقض على العرب من كل جانب ليعيدهم إلى حظيرة التابعين للعنصرية الأوربية . فالاستعمار وهو يدبر الحرب لإخماد القومية العربية إنما قدم الوقود لإحيائها وإلهابها على النطاق العام الذى يحذره والذى يتآمر لتأجيل تحقيقه . فبلاد العرب جميعاً قد أدركت أن مصيرها مرتبط بمصير مصر وأن الاستعمار حين يتخذ من قناة السويس فرصة للانتقام من الدور الذى تقوم به مصر فى مقاومة نفوذ الاستعمار بين ربوع العرب ، إنما يحاول القبض على القناة ليقبض على أعناق العرب جميعاً ويلويها حينما تشاء إرادته القاهرة . وذلك لأن القومية كما تجمع تفرق . وأخشى ما يخشاه الاستعمار أن القومية العربية فى تجميعها للعرب إنما تقطع من أوصاله ، شأنها فى ذلك شأن الحركات القومية التى مزقت الإمبراطورية النمساوية المجرية والإمبراطورية العثمانية والتى تقضى بالتدريج فى أيامنا على الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية وإمبراطوريات الدول الغربية الأخرى .

العريش وسيناء :

وإذ أن الاستعمار قد بلغ مرحلة اليأس والعمى قد اعتز بقوته وتدبيره وذكائه وغدره . ويبدو أنه أراد أن يعيش فى عدوانه على مصر فى لحظة من لحظات توسعه فى القرن التاسع عشر وأن يستعيد بذلك مجداً يجرى نحو الأفول بسرعة عجز خياله عن أن يلاحقه بها . وكان عليه لينفذ خطته أن

يعتمد على المركز الأول للاستعمار فى البلاد العربية وهو إسرائيل التى ولدت من صلبه ورضعت من لبانه وقامت على مبادئه وتؤمن بها وبتطبيقها. فقلب الاستعمار صفحات تاريخه مع الصهيونية فوجد أنه كان بعد سنة ١٨٨٢ سيداً فى مصر وأنه سبق له أن وعد فى أول هذا القرن الصهيونية بالعريش وسيناء وأن كرومر استقبل بعثة صهيونية لدراسة هذا المشروع ولكنها لم تجد فيه حينئذ الحل الكامل لتحقيق مطمح اليهود فى الاستقلال بدولة إسرائيلية بين الدول فنصحت بالعدول عن قبوله . أما اليوم وقد أقامت الصهيونية دولة إسرائيل فإنها ترحب بل وتسعى إلى التحالف مع الاستعمار لتتوسع وتحصل على أمنيتها القديمة من بلوغ حدودها نهر النيل ولتقوم بحراسة قناة السويس . وتأمين مصالحها ومصالح إنجلترا وفرنسا الاستعمارية فى هذا الجزء من العالم كما ذهب إلى ذلك ويزمان فى خطابه إلى « سكوت » ولذلك دبرت المؤامرة الثلاثية لغزو مصر ومما يساعد على فهمها أن نطلع على أساسها وجذورها فيما كتبه « ويزمان » عن فكرة استعمار الصهيونية للعريش وسيناء وندمه على فوات تلك الفرصة التى عرضت لليهود منذ أكثر من نصف قرن . فويزمان يقول :

« لقد علمنا أثناء المؤتمر الصهيونى السادس ، جنبا إلى جنب مع منحة أوغندة أن هنالك منحة فى طريق الإعداد . فإن هرتسل كان يفاوض حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا على شىء قريب جدا من الوطن وهو إمكان الاستعمار اليهودى فى شريط الأرض بين الحد الجنوبى الحاضر لفلسطين ومصر والمعروف عادة بالعريش ويظهر أن المناقشات كانت

دائرة مدة وقت طويل ولكن لم تعرف هيئة الصهيونيين العامة كيف نشأت هذه المناقشات أو أى شيء عنها أكثر من الحقيقة أن بعثة قد أوفدت إلى العريش لتدرس الأرض وموقعها وأن البعثة قد عادت بتقرير غير موافق . وأخبرنا فى المؤتمر أن حكومة جلالة الملك وهى مهتمة دائما باليهود وراغبة فى تحسين حالهم قد أعطت كل تسهيل لممثلى الحركة الصهيونية ليقوموا ببحث المشروع فى المنطقة نفسها . وقد ناقشت اللجنة الموقف مناقشة تامة مع اللورد كرومر الذى استقبل أعضاءها بود ولكن وجد أن المشروع غير عملى بالنسبة إلى افتقاد الماء فى هذا الجزء من جنوب فلسطين .

« وقد نوقشت إمكانيات الرى ولكنها جميعاً كانت تعتمد على استخدام الماء من النيل وبالطبع كانت الحكومة المصرية معارضة لهذا . وبالتحليل الدقيق لهذا التقرير ومع المعلومات الضئيلة التى أعلنت لنا فى المؤتمر فإنه لا يسع المرء أن يشعر بأن موقف اللجنة قد أملى إلى حد كبير بواسطة رغبة زعماء الصهيونية فى ذلك الوقت فى أن يقوموا بالاستعمار فقط على نطاق واسع جدا لأنهم شعروا أن مثل هذا الاستعمار وحده هو الذى يستطيع أن يعمل شيئا فى تخفيف آلام الشعب اليهودى . وفضلوا إذا كان الاستعمار على نطاق واسع غير ممكن أن يسقطوا الأمر كله . وفى رأيى كانت هذه النظرة وهذه النظرة وحدها مسئولة عن انتهاء مشروع العريش وهو حقيقة ملموسة جدا إلى لا شيء . فلم ترض البعثة بشريط الأرض الرفيع على طول ساحل جنوب فلسطين الذى كان من المؤكد إلى حد كبير إقامة مستعمرات عليه إذ أنه كان هنالك أمل طيب فى الحصول على الماء

من باطن الأرض . (وهنالك فى الواقع محلات وبيوت فى العريش اليوم) ولكن ذلك كان مشروعا صغيراً بالنسبة للأفكار العظيمة التى كانت حينئذ سائدة فى دوائر الزعامة الصهيونية . وكان بدءا متواضعا جدا فى نظرها . ولم يحدث أثرا فى تصور وخيال أى من الزعماء أو الجماهير الذين كانت تتعلق أعينهم دائما بكلمة « الحل » ولهذا شعرت اللجنة بأنها مضطرة لأن تشمل فى بحثها صحراء سيناء ولم تصلح هذه للاستعمار إلا إذا وجد الماء . فترك المشروع بكلتيه ولم يوجه أى مجهود لدراسة الشريط الصغير حيث كان الاستعمار ممكنا دراسة مفصلة . وإنى لأرى أنه قد كان من الممكن إحداث فرق عظيم لمصير فلسطين الحاضر لو أننا ركزنا الجهد حينئذ فى القيام ببدء مهما كان صغيراً على طول ساحل جنوبى فلسطين » .

ومن ثم لم تكن المؤامرة الإسرائيلية الإنجليزية الفرنسية وليدة اليوم أو الأمس القريب وإنما اعتمدت على جذور عميقة فى تاريخ التحالف الأصيل بين الصهيونية والاستعمار الغربى . وأن الظروف الجديدة التى نشأت فى الشرق الأوسط والتى يريد الاستعمار الأوربى الصهيونى إخمادها فى المهد لم تكن إلا وقوداً أحيا نار العداوة القديمة بين الفريسة ومفترسها غير مقدر عوامل التغير فى السياسة المحلية والعالمية حق قدرها . فاجتمع الثلاثة فى الظلام معتمدين على التضليل فى كل خطوة من خطوات المؤامرة ومستغلين لأحط ما وصل إليه التدبير الإنسانى فى انتهاز لفرص الضعف الأفراد والدول فاختاروا للهجوم على مصر الوقت الذى اطمأن فيه ، المصريون لقرار هيئة الأمم المتحدة من التفاوض المباشر بينها وبين فرنسا وإنجلترا بحضور المستر هامرشلد سكرتير الأمم المتحدة على أساس المبادئ الستة التى وافق عليها مجلس الأمن لحل مشكلة قناة السويس . وكأنهم

أرادوا أن يسخروا من الأمم المتحدة بعد أن تجاهلوها زمنا طويلا وبعد أن أعلنوا عدم إيمانهم بها فكانت استجابتهم لقراراتها بعد أن لجئوا إليها زيفاً وتضليلا للرأى العام العالمى أن يغزوا مصر فى الوقت المحدد للتفاوض لحل المشكلة القائمة وأن يعلوا بذلك شعار القوة الغاشمة بدلا من شعار العدالة الدولية . واختاروا كذلك وقتا للهجوم على مصر فترة انشغال روسيا بثورة بولندة والمجر التى دبروها حتى يخلولهم جو السياسة العالمية من تدخل المنافس التقليدى القوى فى وضع حد لمطامعهم الاستعمارية فى الشرق الأوسط . ولم ينسوا أن يبعدوا الولايات المتحدة عن منافستهم فى امتيازاتهم بهذه المنطقة بأن اختاروا للغزو وقت انشغالها بالانتخابات الرئاسية بل إن المتتبع للعوامل العنصرية التى تلعب دورا فى السياسة الأمريكية لا بد وأن يدرك مغزى هذا التوقيت للمؤامرة الصهيونية البريطانية الفرنسية لأن الغزاة قصدوا إلى استغلال ضعف المرشح لرئاسة الولايات المتحدة أمام صوت اليهود فى الانتخابات الأمريكية وحرصه على إرضاء يهود أمريكا على حساب البلاد العربية أسوة بما فعل وودرولسون وترومان فى تسخير الولايات المتحدة لصيانة دم اليهودى بسفك دم العربى .

خطاب الرئيس جمال عبد الناصر :

ولقد كانت المؤامرة بين الصهيونية والاستعمار الأوربى عند بدء الغزو المشترك أظهر من أن تختفى رغم ما أعلنوه من عدم الاتفاق السابق بين المعتدين . ولقد وصف الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه الثانى بالأزهر تلك المؤامرة من تجربة مصر فى المعركة بكلمات واضحة سهلة معبرة فقال :

« إن إسرائيل التى قامت بالاعتداء علينا فى ٢٩ أكتوبر كانت تنفذ

خطة الاستعمار . إسرائيل فى ٢٩ أكتوبر هجمت على مصر وكانت تنفذ خطة الاستعمار الفرنسى البريطانى بمعنى أنه كان فيه تحالف إسرائيلى إنجليزى فرنسى .

فى يوم ٢٩ أكتوبر بالليل . يوم الاثنين . . . هجمت إسرائيل واخترقت الحدود المصرية فى منطقة خالية من القوات المسلحة وفى نفس الليلة أعلنت بريطانيا الشريفة أنها لن تستغل هذه الفرصة للتدخل .

« فى يوم ٢٩ أكتوبر دخلت إسرائيل وفى نفس اليوم أعلنت إنجلترا أنها لن تستغل هذه الفرصة . . . لو تفكروا لما حصل اعتداء على قلقيلية فى الأردن الشقيق أرسلت تلغرافا للملك حسين وقلت له يجب أن تتنبه لمؤامرات الاستعمار والذين يسندون إسرائيل .

« فى يوم الاثنين لم تشتبك قوات إسرائيل مع قواتنا فى سيناء ولكنها أخذت منطقة خالية فيها بعض نقط الحدود ، ويوم الثلاثاء كانت قواتنا الضاربة تتحرك إلى الحدود الشرقية ويوم الأربعاء كانت قواتكم المسلحة تأخذ مواقعها بعد أن تكتلت على الحدود الشرقيةلتبدأمعركتهاللدفاع عن حق الوطن وصد العدوان الإسرائيلى .

« يوم الثلاثاء والأربعاء قواتنا التى كانت متجمعة فى أماكن مختلفة قامت بهذا العمل بعزم وتصميم وإيمان ، يوم الثلاثاء والأربعاء كانت حربنا مع إسرائيل وكانت قواتنا الضاربة على الحدود الشرقية . وكانت معظم قواتنا المسلحة على الحدود ، سلاحنا الجوي يوجه ضربات قاصمة لإسرائيل . سلاح الطيران المصرى بدأ منذ قام الاعتداء بالاشتراك بكل قوته فى المعركة ، يوم الثلاث الصبح ، ويوم الأربع طول النهار . . . قاذفات القنابل

المصرية قامت بواجباتها فى ضرب مطارات العدو . . . وقامت بضرب مراكز حشود العدو ، الطائرات المقاتلة المصرية كانت يوم الثلاثاء تعمل عملا متواصلا كان الطيار ينزل ياخذ طيارة ثانية ويطلع . . . وكان التوفيق معنا .

« يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء استشهد ٣ طيارين وأسقطنا ١٨ طائرة يهودية . . . يعنى كان سلاحنا الجوى مسيطراً على أرض المعركة .

« يوم الأربعاء فوجئت بخبر يقول إنهم أسقطوا ١٨ طائرة إسرائيلية منها عدد كبير من الطائرات « الميستير » الفرنسية وقال الطيارون المصريون إنهم لاحظوا وجود طائرات « ميستير » فى الجو أكثر من الموجود عند سلاح الطيران الإسرائيلى وبذلك تبين لنا أن فرنسا قررت معاونة إسرائيل معاونة مستترة . ورغم هذا استطاع سلاحنا أن يسيطر على المعركة .

« لغاية يوم الأربع كانت قواتنا الرئيسية لم تلتحم بقوات إسرائيل وكانت المعركة الوحيدة التى وقعت على حدودنا الشرقية بين العوجة وأبو عجيلة ، قواتنا صدت هجوم اليهود ٣ مرات وكبدتهم خسائر فادحة هذا هو الموقف حتى الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء .

« يوم الأربعاء ٦ مساء حصلت الخديعة الكبرى الخيانة ، الغدر ، انتهاك القيم الأخلاقية قامت طائرات نفاثة وقاذفات قنابل بضرب مطار القاهرة الدولى ، قلنا إذن إنجلترا قررت مساعدة إسرائيل مساعدة سرية .

« يوم الأربعاء الساعة ٧ مساء أعلن صوت بريطانيا وجود حاجة اسمها قيادة الحلفاء وظهر التحالف الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى وأعلنوا أنهم يحافظون على سلام العالم ولهذا يتدخلون ليفرقوا بين القوات المصرية

والإسرائيلية ، هذا هو الإعلان الذى أعلن يوم الأربعاء ، أعلنوا أنهم يحافظون على سلام العالم والغرض منه طبعا هو خداع الرأى العام العالمى وخداع مصر ، قالوا إنهم سيتدخلون بالقوة .

« وانتظرنا لنرى ما هو الوضع فجر يوم الأربعاء ، يوم الأربع طول الليل غارات مستمرة على مطاراتنا الموجودة فى مصر لا فى جبهة القتال وعلى قشلاقاتنا ومعسكراتنا ، وطبعا ظهر بوضوح الغرض الذى تتطلع إليه بريطانيا . الغرض الذى تكلم عنه مستر إيدن فى مجلس العموم ، ليس إلا خدعة كبرى . غرضه أن يضرب الشعب المصرى . غرضه أن نستسلم لقواته الغاشمة . غرضه أن يوقع بنا أكبر قدر من الخسائر . غرضه أن نسحب جيشنا إلى حدود إسرائيل ، ويضربنا ويتركنا أمام إسرائيل ، ليقال إن إسرائيل هزمت قواتنا ويحيق بنا الذل والعار ، غرضه يذلنا .

لو كان إيدن هاجمنا هجوما مباشراً بغير هذه الخديعة كنا احترمناه وكنا نقاتله قتال الند للند ، ولكن إيدن حين هاجمنا ، هاجمنا وقاتلنا قتال الغدر وكانت معركة تتمثل فيها الخديعة والغدر تحت اسم السلام ، والمحافظة على السلام العالمى » .

مؤامرة العدوان فى الصحافة الأمريكية :

وأن هذه الصورة التى صورها الرئيس جمال عبد الناصر للهجوم الثلاثى المدبر على مصر من تجربتنا فى ميدان القتال ، ودراستنا لخطط العدو الماكرة للقضاء على قوتنا العسكرية ، لم تكن وحدها الشاهد الدامغ لذلك التحالف الغادر ، وإنما تنافست مصادر الأنباء العالمية فى الكشف عن بواطن حقيقة تجاوبت أصداؤها فى جنبات العالم بأسره . وحرصت

الصحافة الأمريكية بوجه خاص على كشف القناع عن هذه المؤامرة بين إسرائيل والاستعمار الإنجليزى الفرنسى . خاصة بعد ما بدا من تجاهل الدول المعتدية الثلاث لنصيحة أيزنهاور بعدم الالتجاء إلى القوة فى حل مشكلة قناة السويس . وبعد وصف مجلة « تيم » (Time) الأمريكية لدوافع المؤامرة ومنهج تدبيرها البيان التفصيلى الذى يرجع إليه فى الوقت الحاضر بدرجة كبيرة من الثقة والاعتماد . ولذلك نؤثر أن نسجله لما يشتمل عليه من أسلوب الخداع والتضليل الذى لم يقف عند نسج العدوان على مصر ، وإنما امتد إلى العلاقات بين حلفاء ميثاق الأطلنطى بوجه خاص والعلاقات الدولية بوجه عام . فالمجلة تقول فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ تحت عنوان « المؤامرة — كيف اجتمعت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل » ما يأتى :

« وأثناء الأربعة وعشرين ساعة التى تلت غزو إسرائيل لمصر اشتركت بريطانيا وفرنسا فى إنذار لمصر وإسرائيل — وبعدئذ بدءا فى ضرب القاهرة بالقنابل .

« وقد تحدث وزير خارجية إسرائيل عن تدخل بريطانيا وفرنسا غير المنتظر ، واحتج وزير خارجية بريطانيا سلوين لويد قائلا « لم يكن هنالك اتفاق سابق بيننا » وبالرغم من تصريحاتهم فهنالك من الأدلة القوية ما يبين أن الهجومين قد دبرا عن طريق التآمر . وفى هذه المؤامرة كانت فرنسا المحرض وبريطانيا شريكا متأخرا ، وإسرائيل الزناد المستعد للانطلاق .

« وأن الدليل على الترصد وسبق التدبير يرجع تقريبا إلى شهرين . ففرنسا تحركت أولا وبأسرع ما يمكن . لأن الفرنسيين رغبوا فى مهاجمة الرئيس جمال عبد الناصر بعد أن استولى عليهم الغضب وخيبة الأمل من

جراء متاعبهم فى الجزائر . فما أن مضت أيام قلائل بعد استيلاء الرئيس جمال عبد الناصر على شركة قناة السويس حتى أرسل رئيس الوزارة جى موليه (Guy Mollet) وزير دفاعه إلى لندن ليدبر خطة عسكرية مشتركة لإعادة احتلال القناة .

« وقد أقيمت المنظمة المشتركة وأطلق عليها اسم « آميلكار » (وهو اسم والد هانيبال) وبينما كان الدبلوماسيون يحضرون مؤتمرات لندن وينادون بالالتجاء إلى الأمم المتحدة كانت القوات الإنجليزية الفرنسية تتجمع فى قبرص ، ولونت الدبابات بلون الرمل الأصفر ، وضربت نقود الاحتلال ، ووضعت الخطط للاستيلاء على خطوط النقل الجوى المدنى ، وكان الهدف مصر ولم يكن للخطط فى هذه المرحلة أى اتصال بإسرائيل .

« وبعد ذلك بفترة قصيرة قرر الفرنسيون قراراً سياسيا جوهريا بأن وضعوا حداً لمصادقة العرب واتجهوا إلى اجتذاب إسرائيل عدوة العرب . وقد زار باريس مناحم بيجين (Menahim Beigin) الإرهابى وزعيم حزب حيروت المتطرف فى إسرائيل ودعى ليلقى خطابا فى مجلس النواب — وهذا شرف غير مسبوق بالنسبة لسياسى فى المعارضة ينتمى إلى بلد أجنبى . وأرسلت فرنسا سرا إلى إسرائيل ثلاثين مقاتلة نفاثة من طراز « ميستير » . وفى ٢٣ سبتمبر أعلن رئيس وزراء إسرائيل دافيد بن جوريون فى ابتهاج أن إسرائيل قد وجدت آخر الأمر « حليفاً صادقا » .

(وقد استفسرت سفارة الولايات المتحدة فى إسرائيل عن ذلك الحليف ولم تحصل على جواب) .

« ولم تكن بريطانيا أول الأمر مشتركة فى هذا العمل ، فبريطانيا

كانت لاتزال مشغولة بمحاولة التفوق على الرئيس عبد الناصر فى زعامة العالم العربى . وفى الأيام الأولى من أكتوبر ، أحنق السير أنتونى إيدن الإسرائيليين باقتراحه سلماً قائماً على مشروع التقسيم فى سنة ١٩٤٧ . وكانت الأردن ميدان المعركة فى نزاع بريطانيا مع الرئيس جمال عبد الناصر . فالأردن قد طردت جلوب باشا البريطانى ولكنها كانت لا تزال فى حاجة إلى معونة الثلاثة والثلاثين مليون ريال التى تأخذها من بريطانيا . وبتوجيه من لندن قدمت العراق (وهى حليف بريطانيا الوحيد فى العالم العربى) إلى الأردن معونة عسكرية . ولكن منحة العراق هبطت إلى حمولة طيارتين من الأسلحة الصغيرة . وزاد الرئيس جمال عبد الناصر على ذلك بإرسال خمس نفاثات من طراز « فامبير » وكحل أخير ، اقترحت بريطانيا إرسال فرق من الجيش البريطانى إلى الأردن لمحاولة منع تولى حكومة مناصرة للرئيس عبد الناصر فى انتخابات الأردن المقبلة . وقد أعلنت إسرائيل فى ١٢ أكتوبر أن مثل هذه الحركة سوف تعنى الحرب . فسحبت بريطانيا تأييدها للمشروع ومالت الأردن نهائيا نحو الرئيس عبد الناصر . وقد كانت هذه حادثة حاسمة .

« وإذ افتقدت بريطانيا الأردن فى الواقع ، فقد رأت بريطانيا مركزها فى العالم العربى يتحطم . وأصاب بريطانيا الحقد وخيبة الأمل عند فشل جهودها فى أن تخضع الرئيس عبد الناصر . كما أن الروس كانوا قد عطلوا « بالفيتو » آخر مجهود لفرض حل على مصر . وكلا البريطانيين والفرنسيين كانوا يزدادون غضبا على وزير الولايات المتحدة ، جون فوستر دالاس(John Foster Dulles) ففى رأيهم ، عجل دالاس بغضب الرئيس عبد الناصر بقراره المفاجئ لإنهاء اتفاق خزان أسوان . وفوق ذلك حين

رد الرئيس عبد الناصر بالاستيلاء على شركة القناة أقنعهم دالاس بالعدول عن اتخاذ إجراءات قوية ، وبعدئذ ارتد عن وعده الضمنى فى أن يدفع المقاطعة الاقتصادية للقناة — تاركا الرئيس عبد الناصر منتصراً ودون أن يلقى جزاء .

« وفى ١٦ أكتوبر طار السير أنتونى إيدن ووزير الخارجية ساوين لويد إلى باريس ليقابلا موليه ووزير الخارجية كرستيان بينو . وإذ منعوا وجود جميع المستشارين من الحجرة ، فقد تداول الأربعة فى سرية عميقة لمدة خمس ساعات .

« ومن المفترض أن هذه كانت اللحظة التى قررت فيها بريطانيا قرارها المشئوم — بدافع من إلحاح فرنسا — لتؤيد إسرائيل فى الشرق الأوسط وكما عرف الفرنسيون ، كانت إسرائيل على وشك إعلان حرب وقائية . وأن الأدلة تشير إلى اجتماع باريس فى ١٦ أكتوبر — إثنا عشر يوما قبل غزو إسرائيل لمصر — كان الاجتماع الذى اتفق فيه إيدن وموليه على إعادة احتلال منطقة قناة السويس بالاشتراك وتبرير ذلك بحمايتها من هجوم إسرائيل المدبر . وسواء أخبرت إسرائيل بهذا أم لم تخبر ليس أمراً واضحاً (فقد عزموا على أن يهاجموا على أية حال) ولكن إسرائيل كما يبدو قد حافظت منذ ذلك الوقت على اطلاع فرنسا (بريطانيا عن طريق فرنسا) على حركتها باستمرار .

« وقد تعجل رئيس الوزارة موليه وهو يجيب على النقد الموجه فى اجتماع وزارى إلى عدم اتخاذه عملا ما حول هذا الوقت ، فقال « يجب أن تثقوا بى . إن شيئا سوف يحدث قبل انتهاء السنة . ولا أستطيع أن أقول أكثر من هذا . فهناك سر دبلوماسى على أن أصونه « وكذلك من تلك اللحظة

وما بعدها فقد الدبلوماسيون فى الولايات المتحدة كل اتصال مع مصادرهم فى لندن وباريس عن شئون الشرق الأوسط . فاستفسارات الولايات المتحدة كانت تهمل ومطالبهم عن الاستعلام تتجنب ومقابلاتهم تؤجل .

« وفى يوم الخميس ٢٥ أكتوبر حين بدأت إسرائيل تعبئتها السريعة فى هدوء ، لاحظ الملحقون العسكريون للولايات المتحدة أن زملاءهم الفرنسيين والبريطانيين قد أوقفوا فجأة التحدث إليهم وبدا أن الفرنسيين والإنجليز يعرفون عن التعبئة الإسرائيلية أكثر مما يعرف الأمريكيون بدرجة كبيرة » .

العوامل والقوى المضادة للعدوان :

وفى الواقع أن من يتأمل كل ما ظهر من أدلة نظرية وعملية للغزو الصهيونى الاستعمارى لمصر يثبت أحكام المؤامرة من النواحى العسكرية ، ولكن فشل الغزاة الغادرين فى تقدير العوامل السياسية والقوات الجديدة على مسرح السياسة العربية والمالية . فمصر فى عهد الثورة قد اكتسبت خلقاً قوميا عم جميع طبقات الشعب واتسم بالاستشعار العميق للعزة والحرية والمساواة الذى صاحب نشوة أفراد الشعب حين جلا عن بلادهم فاروق فى سنة ١٩٥٢ والبريطانيون سنة ١٩٥٦ وحين رأوا تطامن الإقطاع بعد انحسار صولة رعاته. ومن ثم كانت صيحة الرئيس جمال عبد الناصر بأن المصريين سيحاربون ولن يسلموا تعبيرا صادقا عن إحساس الشعب بمسئولية الحرية وواجب الدفاع عنها إلى آخر قطرة من دم المواطنين . وقد نسج الخطر المحدق بمصر من البر والبحر والجو بين أفراد الشعب نسيجا متماسكا أذهل المراقبين للسلوك المصرى فى وجه العدوان الوحشى . وتدافعت مواقف البطولة والفداء من الجيش والشعب وبرزت فى قوة وضياء معلنة أن مصر قد خلقت خلقاً

جديداً وتجاوبت القيادة والشعب تجاوباً دل على أن وعى المصرى قد تحقق وأن شجاعته التاريخية قد استعيدت ، حتى أن بيفان النائب العمالى البريطانى سخر من إغفال الحكومة البريطانية لهذا العامل الجديد فى حياة الشعب المصرى بإشارته اللاذعة إلى حزب المحافظين البريطانيين بدا فى نظرته للمقاومة المصرية ، وكأنه قد ظن أنه وحده من بين الشعوب الحريص على عزة بلاده والقادر على أعمال الشجاعة والكرامة .

وما أن كون الجيش والشعب جبهة المقاومة وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن كل مواطن يعد جنديا فى جيش الدفاع عن الوطن ، واصطف المصريون فى صف واحد يتنافس أعضاؤه فى ثبات وعزم على تقديم الأرواح بين الكبار والصغار والرجال والنساء والمتعلمين وغير المتعلمين ، حتى أثمرت السياسة المصرية الحديثة ثمرتها المرتجاه فى نطاق السياسة العربية والآسيوية الأفريقية والعالمية . فسوريا ألقت بما تملك فى مشاركة مصر الدفاع عن نفسها ، والمملكة العربية السعودية وقفت إلى جانب مصر وقفة كريمة نبيلة ، والملك حسين أعلن استعداده الصادق للمساهمة فى المعركة . وفى إيجاز فوجئ العالم بأن القومية العربية ليست مجرد عاطفة وإنما هى عاطفة وعمل فى الوقت نفسه . وقد وصف الرئيس جمال عبد الناصر سلوك القومية العربية فى المعركة بقوله : « إخواننا فى الدول العربية القومية العربية موقف العرب ، حدثت دعايات معادية كانت تهدف إلى القضاء على القومية العربية أرادت أن تبث فى نفوسنا الشك نحو وحدة العرب ، ولكنى أرد على هذه الدعايات فأقول إنى فى يوم الأربعاء الماضى اتصل بى الملك سعود تليفونيا وقال لى إن جيش المملكة السعودية تحت تصرفنا وإن المملكة السعودية مستعدة تعمل أى شىء نطلبه منها ، وكان ردى إننا

قلقون على الأردن لأن الجيش المصرى يستطيع أن يصد العدوان اليهودى وأن يلقن إسرائيل درسا . وأبلغته أننا سنتصل بالأردن ، ولكن الملك سعود أبلغنى أن جيش السعودية مستعد لمعاونة مصر ومستعد لتلبية أى طلب وأن أموال المملكة السعودية تحت تصرف مصر .

« وفى نفس اليوم اتصل بى الملك حسين بالتليفون وقال لى إن الجيش الأردنى مستعد بناء على الاتفاق الثلاثى الذى وقع منذ ١٥ يوما أن ينفذ كل ما تراه القيادة المشتركة ، وأن الأردن متعاون معنا كل تعاون ، وكان الملك حسين يعنى كل كلمة يقولها ، وقال لى إن أى خطة مشتركة سينفذها ، وأنا قلت للملك حسين إن هدفنا ألا تكون هناك جبهة فى الأردن وأن ينحصر القتال بين الجيش المصرى والإسرائيلى ، وأن تتعاون السعودية والأردن حتى يقاتلوا القوات الإسرائيلية إذا حصل اعتداء على الأردن.

« الملك سعود عرض وكان يعنى كل كلمة ، ولكن خطتنا كانت تمنع إرسال قوات إلى مصر لأن الأردن كان مهددا ، الملك حسين عرض جميع المعاونات الممكنة ، ولكن خطتنا كانت ألا نورط الأردن . . . هذا حدث يوم الجمعة .

« سوريا ، الرئيس شكرى القوتلى اتصل بى وقال إنه مستعد أن يقوم بأى عمل تكلفه به القيادة المشتركة ولكن خطتنا كانت عدم فتح أية جبهة أخرى .

« هذا موقف الدول التى تحالفنا معها ، موقف مشرف يدعو إلى الاعتزاز وإلى الثقة . . . هذه دولنا الحليفة ، لماذا أقول هذا ؟ لأن راديو الأعداء يقول أين القومية العربية ؟ والأعداء يهدفون إلى القضاء على القومية العربية ، الشعوب العربية فى كل مكان تعاونت معنا ضد الاستعمار وضد مصالح الاستعمار من العراق إلى مراكش ، دخلنا المعركة وكانت

القومية العربية كلام . . . وخرجنا وقد أصبحت عملا حقيقيا . . . الشعوب العربية عرضوا أنفسهم للخسارة ، ولكنها كانت ضربة قاضية للأعداء. القومية العربية هي الهدف . . . هي الغرض . . . هدف الاستعمار لأنهم يريدون أن يقضوا على هذا التكتل ، وأنا قلت لكم من أشهر إن القومية العربية قد انبثقت .

« إن القومية العربية لم تكن كلاما يقال ، بل أصبحت عملا فعالا ، بريطانيا اليوم لايصلها بترول ، والعرب تعاونوا معكم فى كل الميادين . . . نسفوا أنابيب البترول ، وعرضوا أنفسهم للخسارة . . . إنها خسارة لهم ولكنها ضربة قاضية للأعداء ، وكسب للقومية العربية ، القومية العربية اليوم عمل فعلى متماسك ، إذ أن الهدف الذى كانت تهدف إليه بريطانيا قد فشل ، فالقومية العربية اليوم أقوى مما كانت عليه فى أى يوم ، العرب اليوم رؤساء وشعوب وحكومات رجل واحد مع مصر فى هذه المحنة ، بل فى هذه المعركة ، وهى معركة يضرب بها المثل فى سبيل الحرية والكرامة » .

وهكذا كان تجاوب العرب مع مصر فى المعركة من الظواهر التى أعلنت مولد القومية العربية بين الحركات السياسية العالمية التى تميز القرن العشرين ، كما كان من الأدلة التى أثبتت خطأ الدعاية الصهيونية الاستعمارية فى ادعائها أن القومية العربية لن تقف على قدميها أمام أى امتحان تتعارض فيه مصالح العرب المادية ومعتقداتهم الوطنية . فما ظهر من استعداد العرب للتضحية بمصالحهم المادية فى موارد البترول وغيره ، يكذب ما تشدق به كتاب الصهيونية من أن العربى فى العصر الحديث غير واع وعيا سياسيا يدفعه إلى تفضيل الحرمان إعلاء لقيم معنوية على الترف فى أحضان الاستعباد الروحى الذى يفرضه الاستعمار الغربى فى استغلاله للشعوب .

الرأى العالمى :

ولم تتحد مصر وحدها فى وجه العدوان الثلاثى ، كما لم يتحد معها العرب وحدهم ، وإنما بادرت الجبهة الآسيوية الأفريقية إلى إعلان دفعها لهذا الاستعمار السافر فى القرن العشرين ، والذى قاست منه دولها فى الماضى ولم تكد تتنسم نسائم الحرية بعد ابتعاد شبحه عنها فى العصر الحاضر . فلقد أثارت مقاومة بور سعيد الصامدة الباسلة التأييد فى صور مختلفة من دول آسيا وأفريقيا التى عرفت مصر فى مؤتمر باندونج كقوة من قوى الحرية والسلام فى العالم المعاصر ، وأخذت شعوبها تعرض الاشتراك الاختيارى فى مقاومة عودة الغدر والاستغلال من قبل استعمار بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، كما اتخذت حكوماتها مواقف حاسمة فى هيئة الأمم المتحدة إلى جانب حق مصر فى التحرر من تآمر المستعمرين المقيت . ووجه الاستعمار فجأة بيقظة الرأى العام الآسيوى الأفريقى وقيامه عاملا جديداً من عوامل القوة المعنوية على مسرح السياسة العالمية . وبدا للعالم أن آسيا وأفريقيا أخذتا بشعوبها المتيقظة تحجزان لأنفسهما مكاناً له وزنه الذى لن يستطيع الغرب فى صراع قواه أن يتجاهله بعد اليوم.

ولقد تجاوبت أمريكا وأوربا مع آسيا وأفريقية فى إنكار هذا الغدر الذى أثار الاحتقار والسخط والذى ما كان ليدبر بهذا الأسلوب إلا فى فترة انحطاط وعدم اكتراث بالقيم الإنسانية والدولية كتلك الفترة الراهنة التى تمر بها إنجلترا وفرنسا فى تاريخها نحو السقوط والأفول. فما كان من هنرى كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) مندوب الولايات المتحدة فى مجلس الأمن إلا أن قدم اقتراحا بوجوب انسحاب إسرائيل من أرض مصر ، وأضاف إلى ذلك قوله بأنه يتحتم على أعضاء هيئة الأمم المتحدة « أن

يمتنعوا عن إعطاء أية مساعدة عسكرية أو اقتصادية أو مالية إلى إسرائيل ما دامت لم توافق على هذا الاقتراح » وعلق على إنذار إنجلترا وفرنسا إلى مصر بقوله الواضح الحاسم بأنه « لا يمكن فى أية حال من الأحوال تبرير الإنذار الإنجليزى الفرنسى أو اعتباره متمشيا مع أغراض ومبادئ الأمم المتحدة » ثم جاء صوت أوربا القوى متمثلا فى سوبوليف (Sobolev) مندوب روسيا ليؤيد هذا الاقتراح الأمريكى ، فأعلن بيانه بأن « الوفد السوفييتى مستعد ليقترع فى صالح اقتراع الولايات المتحدة » .

ولكن بريطانيا وفرنسا مدتا حربهما على مصر إلى ساحة مجلس الأمن إذ قررتا استخدام حق الفيتو فى رفض مشروع انسحاب الدول المعتدية الثلاث من غزوها لمصر . غير أن الضمير العالمى لم يسكن إلى تقبل الهزيمة على هذا النحو آمام ما أعلنه السيد عمر لطفى ، مندوب مصر فى هيئة الأمم المتحدة فى « أن مصر قد تعرضت لاعتداء مشترك — اعتداء مدبر — من إسرائيل والمملكة المتحدة وفرنسا » . ومن الطريف أن بيرسون ديكسون (Pierson Dixon) مندوب بريطانيا رفض تهمة التآمر على مصر وأعلن أن أمته إنما تريد الفصل بين المتحاربين من الإسرائيليين والمصريين وتبتغى حماية قناة السويس وأن احتلالها لمصر سيكون احتلالا « مؤقتا » ولقد كان عجز مجلس الأمن باستخدام حق الفيتو السبب المباشر فى نقل مسألة العدوان الغادر إلى ساحة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وذلك لإنقاذ وجود هيئة الأمم نفسها بعد أن أصرت إنجلترا وفرنسا على هدمها بشل عملها ، وأصر همرشولد على الاستقالة من منصب السكرتير العام لهيئة يمسك أعضاؤها بالفئوس المقوضة لبنائها . وفى تلك الساحة تآزر الشرق والغرب على تأليب قوة الرأى العام العالمى ضد العدوان الغادر ، وتوالت قرارات الأمم المتحدة

فى تأييد مصر . ولقد صاحب هذا التأييد السياسى اتجاه روسيا إلى وقف القوة بالقوة والعنف بالعنف ، فدعت الولايات المتحدة للاشتراك معها فى ذلك باسم الأمم المتحدة ، وحين رفضت الولايات المتحدة ذلك الاقتراح أعلنت روسيا استعدادها للانفراد بهذه المهمة . وجاء إنذار بولجانين لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل بوقف العدوان جزاء وفاقا ، وقصاصا عادلا ، وإنذارا بإنذار . وشتان ما بين الإنذارين ، فالإنذار البريطانى الفرنسى لمصر كان صوت العدوان ، أما إنذار بولجانين للمعتدين الغادرين فكان صوت العدل والسلام ، واستجابة لنداء مصر فى دعوتها الإنسان لنصرة الإنسانية فى بيانها القائل :

« إن شعب مصر يخوض معركة البقاء والشرف وهو لا يقاتل من أجل نفسه وبلده فقط ، بل هو يقاتل من أجل العالم المتحضر كله . . . وما دام العدوان على مصر مستمرا فى إقليمها ، متحدياً قرارات الأمم المتحدة فإن مصر ستستمر فى القتال بكل عزم وإصرار ، وبكل ذرة فى كيانها ضد قوى الشر ، فى سبيل حياة كريمة تستحق أن يعيشها الإنسان ، من أجل هذا كله تنشد مصر معونتكم » .

وإزاء هذه القوى المتفجرة لمقاومة العدوان من مصر والعرب وآسيا وأفريقية وأوربا وأمريكا ، أعلنت دول العدوان المدبر وقف القتال والعزم على الانسحاب من المعركة . ولكن القتال وإن توقف وقتيا وجزئيا ، فى بور سعيد إلا أن المعركة مع الصهيونية والاستعمار ستدوم ما دام تحالفها العدوانى ضد القومية العربية . وإن دوام هذه المعركة ليبدو واضحاً من إصرار المعتدين على مواصلة اعتدائهم بتشجيعهم إسرائيل على تحدى قرارات الأمم المتحدة والمساومة للإفادة من العدوان المشترك غير عابئين بما قد ينجم عن ذلك من تهديد للسلام العالمى الذى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياسة المحلية والدولية فى الشرق الأوسط .